

دراسات في روائع الأدب المملوكي
(٢)

رأية جمال الدين التبريزي في واقعة مرج الصفر

مقاربة تحليلية

تأليف
الدكتور نبيل محبت زرشاد

Editions
Al-Adab
1923

42 Opera Square • Cairo Tel: (202) 23900868

مكتبة الأديب

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة • ت: ٢٣٩٠٠٨٦٨

دراسات في روائع الأدب المملوكي

(٢)

رائية جمال الدين التبريزي

في واقعة مرج الصفر

مقاربة تحليلية

تأليف

الدكتور نبيل محمد مرشاد

أستاذ الدراسات الأدبية المساعد

كلية التربية - جامعة عين شمس

قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية

الطبعة الأولى

١٤٣٢ هـ = ٢٠١١ م



42 Opera square - Cairo - Egypt

الناشر
مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة ت: ٢٣٩٠٠٨٦٨

البريد الإلكتروني: adab@hotmail.com



الناشر

مكتبة الآداب

علي حسن

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ - ٢٠١١م

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشؤون الفنية

رشاد، نبيل محمد.

رائية جمال الدين التبريزي المتوفي ٧٤٠هـ

في واقعة مرج الصغير: مقارنة تحليلية /

تأليف نبيل محمد رشاد.

ط ١ - القاهرة: مكتبة الآداب، ٢٠١١.

١٠٤ ص؛ ٢٤ سم.

تدمك ٠ ٣٤٠ ٤٦٨ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - الشعر الحماسي

أ - العنوان

٨١١، ٠٢٤

مكتبة الآداب

(علي حسن)

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة

هاتف: ٢٣٩٠٠٨٦٨ (٢٠٢) -

e-mail: adabook@hotmail.com

عنوان الكتاب: رائية جمال الدين التبريزي

تأليف: الدكتور نبيل محمد رشاد مصطفى

رقم الإيداع: ٩٨٣٣ لسنة ٢٠١١م

الترقيم الدولي: 0 - 340 - 468 - 977 - 978 I.S.B.N.

الإهداء

إلى أستاذي الجليلين . .

الأستاذ الدكتور محمد يونس عبد العال
والأستاذ الدكتور مصطفى عبد الشايف الشورى

شاكرًا لهما حُسنَ صنيعهما، مراجيًا دوامَ ودِّهما

مُقَدِّمَةٌ

القاضي جمال الدين أبو بكر عبد القاهر بن محمد التبريزي المتوفى ٧٤٠هـ واحدٌ من مشاهير شعراء القرن الثامن الهجري الذين سقطت دواوينهم من يد الزمن، ولم يتبقَّ من آثارهم الفنية سوى عددٍ محدودٍ من المقطعات والأبيات المفردة التي احتفظ بها كتاب التراجم من مثل ابن شاعر الكتبي في كتابه: «فوات الوفيات»، والصلاح الصفدي في كتابه: «الوافي بالوفيات»، و «أعيان العصر، وأعيان النصر»، وابن حجر العسقلاني في كتابه: «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة».

ولقد شاءت الأقدار أن تحتفظ لهذا الشاعر المجيد بقصيدة رائية طويلة يبلغ عدد أبياتها مائة وسبعة عشر بيتاً قالها بمناسبة انتصار المصريين على التتريين في موقعة مرج الصُّفَر التي كانت في العام الثاني من المائة السابعة للهجرة (٧٠٢هـ).

واحتفظ بنص هذه القصيدة كاملاً اثنان من كبار مؤرخي مصر المملوكية هما أبو بكر الدواداري المتوفى ٧٣٢هـ في كتابه: «كنز الدرر، وجامع الغرر»، وشهاب الدين النويري المتوفى ٧٣٣هـ في كتابه: «نهاية الأرب في فنون الأدب».

ولقد قرأت القصيدة فوجدتها تقارب نظيراتها مما قاله شعراء العربية الكبار في شعر الحماسة من مثل عينية لقيط بن يعمر الإيادي التي قالها في استنهاض همة قومه لرّد عادية الفرس في العصر الجاهلي، وبائية أبي تمام التي قالها بعد انتصار

المعتصم في وقعة عمورية، وميمية أبي الطيب المتنبي التي قالها في موقعة «قلعة الحدث»، وامتداح سيف الدولة الحمداني، ومن ثم رأيت أن أخصها ببحث مستقل.

ولما كان الشاعر مجهولاً غير معروف لتأخر زمنه، وندرة نتاجه الشعري، وعدم تيسر المتاح منه بأيدي الدارسين، ولما كانت المعركة التي دار حولها موضوع النص مجهولة غير معروفة شأنها في ذلك شأن العديد من المعارك التي خاضتها الدولة المملوكية الأولى بمصر والشام ضد التتريين وفلول الصليبيين، اتجه البحث نحو هذين الجانبين، فدرست شبكة الظروف أو مختلف العوامل السياسية والاجتماعية والعسكرية التي كانت بمثابة الدافع إلى إنشاء النص، وقد اقتضى البحث في هذا الجانب العودة إلى المصادر التاريخية التي أرخت لهذه الموقعة، وتحديث عن تفاصيلها لمعرفة مجريات الأمور والأحداث والوقائع ومضاهاتها بما تحدث عنه الشاعر في النص منها.

ثم تتبعت أصداء الرائية في كتابات المؤرخين والنقاد في هذه الحقبة، ولاحظت أنهم وصفوا شعر التبريزي بالعدوبة والانسجام، ولاحظت أن الصلاح الصفدي قد أشار إلى وقوع شاعرنا في اللحن إذا نظم أو نثر، فأردت أن أتبين إلى أي مدى كان الصفدي محققاً في اتهامه التبريزي بالوقوع في اللحن فقمت بتتبع الشاعر في قصيدته فوجده قد وقع في بعض عيوب القافية كالإقواء، وارتكب عددًا من الضرائر الشعرية بنوعيهما الصرفي، والنحوي.

وقد دعاني التعرف على شخصية الشاعر الثقافية إلى دراسة ما وقع بالنص من تناص مع ما سبقه من ميراث العربية الديني والأدبي، وأسفر البحث في هذا الجانب عن تأكيد المقولة النقدية القديمة التي فحواها أن حرفة الإنسان لها أثرها

الذى لا يخفى على إبداعه الفنى، فالتبريزى كان فقيهاً شافعيًا، وتولى القضاء غير مرة بمصر والشام، كما كان خطيباً مقوِّهاً، يهز أعواد المنابر، ويستحوذ على ألباب مستمعيه ومشاعرهم، ومن ثمَّ كان منطقيًّا بموجب مقولة أثر الحرفة أن تسيل ألفاظ القرآن الكريم وتعبيراته على لسانه، وأن تجرى نصوص الشعر العربى القديم على سنان قلمه فى هذا النص.

وفى النهاية أود أن أشير إلى أننى انتهجت نهجًا تكامليًّا فى دراسة النص حيث استفدت من معطيات المنهج التاريخى فى الجزء الخاص بالحديث عن شبكة الظروف، واعتمدت على المنهج الوصفى عند الحديث عما وقع فى القصيدة من اللحن، أما المنهج التحليلى فقد استخدمته فى كشف جوانب الجمال التى احتشدت بها الأبيات التى حللتها فى مبحث التناص والدلالة، والله الموفق، والهادى إلى سواء السبيل.



الفصل الأول
نص الرائية
ضبط، وشرح، وتعليق

١- اللَّهُ أَكْبَرُ جَاءَ النَّصْرُ وَالظَّفَرُ

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ هَذَا كُنْتُ أَتَنَظَّرُ

٢- وَأَبْرَرَ الْقَدَرَ الْمُخْتَوِمَ بَارِئُهُ

سُبْحَانَهُ بِيَدَيْهِ النَّفْعُ وَالضَّرَرُ

٣- وَهَوَّنَ الصَّعْبَ بِالْفَتْحِ الْمُبِينِ لَكُمْ

رَبِّ يَهُوْنُ عَلَيْهِ الْمَقْفَلُ الْعَسِيرُ

٤- وَلَمْ تَزَلْ شِرْعَةً الْإِسْلَامِ ظَاهِرَةً

أَجْزَمَ بِهِ فِيهِ هَذَا صُحَّحَ الْحَبْرُ

٥- آيَنَ النُّجُومُ وَتَأْيِيْرُ الْقِرَانِ وَمَا

تَخَرَّصُوا فِيهِ مِنْ إِفْكِ وَمَا زَجَرُوا

٦- قَدْ دَبَّرَ اللَّهُ أَمْرًا غَيْرَ أَمْرِهِمْ

وَحَابَ مَا زَخَرَفُوا^(١) فِينَا وَمَا هَجَرُوا^(٢)

٧- وَأَقْبَلَ الْعَسْكَرُ الْمَنْصُورُ يَقْدُمُهُ

مِنَ الْمَلَائِكِ جُنْدٌ لَيْسَ تَنْحَصِرُ

٨- وَقَدْ أَحَقُّوا بِهِ وَالْأَرْضُ مِنْ زَجَلٍ^(٣)

تَزْتَجُّ إِنْ سَبَّحُوا اللَّهَ أَوْ ذَكَرُوا

(١) زخرفوا: زينوا، وموهوا.

(٢) هجروا: نعتوا، ووصفوا.

(٣) الرَّجُلُ بِالْحَرْكِ: اللَّعِبُ، وَالْجَلْبَةُ، وَالتَّطْرِبُ. القاموس المحيط: ٣ / ٣٧٦.

٩- كِنَانَةُ اللَّهِ مَضْرُجُنْدَهَا ثَبَّتَتْ

لَا رَيْبَ فِيهِ وَجُنْدُ اللَّهِ تَنْتَصِرُ

١٠- ثَارُوا سِرَاعًا إِلَى إِذْرَاكِ ثَارِهِمْ

وَهَجَرُوا^(١) فِي طِلَابِ الْمَجْدِ وَابْتَكَرُوا^(٢)

١١- وَأَسْهَرُوا أَعْيُنًا فِي اللَّهِ مَارَقَدَتْ

أَكْرِمَ يَقُومٍ إِذَا نَامَ الْوَرَى سَهَرُوا

١٢- اللَّهُ كَمَ دَيْئُوا فِي نَضْرِ دِينِهِمْ

وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا ادَّخَرُوا

١٣- صَانُوا الْجِيَادَ وَسَنُوا كُلَّ ذِي شُطْبٍ^(٣)

وَجُدَّدَتْ لِلْقَيْسِيِّ النَّبْلُ وَالْوَتْرُ

١٤- حَمَاهُمُ اللَّهُ كَمَ حَامُوا وَكَمَ مَنَعُوا

وَكَمَ أَغَاثُوا وَكَمَ أَوْفَا وَكَمَ نَصَرُوا

١٥- وَخَلَفُوا خَلْفَهُمْ لَذَاتِ أَنْفُسِهِمْ

وَهَاجَرُوا وَلَذِيذَ الْعَيْشِ قَدْ هَجَرُوا

(١) هَجَرُوا: أَمَرُوا بِالْمَسِيرِ فِي الْهَاجِرَةِ، أَيْ فِي مَتَّصِفِ النَّهَارِ عِنْدَ زَوَالِ الشَّمْسِ إِلَى الظَّهْرِ، أَوْ

عِنْدَ زَوَالِهَا إِلَى الْعَصْرِ. الْقَامُوسُ الْمَحِيط ٢/ ١٥٧.

(٢) ابْتَكَرُوا: سَارُوا فِي الْبُكُورِ.

(٣) شُطْبُ السَّيْفِ بَضْمُ الشَّيْنِ وَالطَّاءُ أَوْ بَضْمُ الشَّيْنِ وَفَتْحُ الطَّاءِ: طَرَائِقُهُ الَّتِي فِي مَتْنِهِ،

وَاحِدَتَهُ شُطْبَةٌ وَشُطْبَةٌ. وَشُطْبَةٌ. اللِّسَانُ ٤/ ٢٢٦١.

١٦- وَأَوْجَفُوا^(١) نَفَرًا بِالْحَيْلِ مُلَحَمَةً

وَبِالرَّكَابِ وَمَا مَلُّوا وَلَا فَتَرُوا

١٧- حَتَّى أَتَوْا جِلْقًا^(٢) فِي يَوْمٍ مَلَحَمَةٍ

فِيهِ الْأُسُودُ أَسُودُ الْغَابِ تَهْتَصِرُ

١٨- لَهَا السَّنَابِكُ فِي الْمِيدَانِ قَدْ حُنِيَتْ

صَوَاجِحًا^(٣) وَلِهَارُوسُ الْعِدَا أَكْرُ^(٤)

١٩- وَالْجَوُّ أَغْبَرُ وَالنَّاتَارُ زَاحِفَةٌ

مِثْلَ الْجَرَادِ عَلَى الدُّنْيَا قَدْ انْتَشَرُوا

٢٠- وَدِدْتُ لَوْ كُنْتُ بَيْنَ الصَّفِّ مُنْجِدًا^(٥)

قَدْ اِزْتَوَتْ مِنْ دَمِي الْحَطِيبَةُ السُّمُرُ

٢١- وَكَوْثُرُ الْحَرْبِ قَدْ رَاقَتْ مَشَارِبُهُ

تَحْتَ الْعِجَاجَةِ^(٦) وَالْأَبْطَالُ تَعْتَكِرُ^(٧)

(١) أوجفوا: سيروا، إذ الوجيف ضربٌ من سير الإبل والخييل.

(٢) جِلْقٌ: اسم من أسماء دمشق.

(٣) الصوارج، والصوارجة: جمع صولجان وهو المحجن. راجع القاموس المحيط مادة صولجان في ١ / ١٩٥، ومادة حجن في ٤ / ٢٠٩.

(٤) الأكر: جمع أكرة، وهى لغة فى الكرة. راجع السابق نفسه ١ / ٣٦٢، ونهاية الأرب فى فنون الأدب لشهاب الدين النويرى ٣٢ / ٥٢ هامش رقم ٣.

(٥) منجدلاً: يقال: طعنه فجدله أى رماه بالأرض فانجدل أى سقط. اللسان ١ / ٥٧٠.

(٦) العجاجة: الإبل الكثيرة العظيمة. القاموس المحيط ١ / ١٩٧.

(٧) تعتكر: تختلط فى الحرب. السابق نفسه ٢ / ٩٣.

٢٢- وَالسَّيْفُ يُنْشَى بِدِيْعًا مِّنْ بَوَاتِرِهِ

وَالرُّمْحُ يَنْظِمُ وَالْهَامَاتُ تَنْتَشِرُ

٢٣- وَالنَّبْلُ يَنْقُطُ^(١) وَالْأَقْلَامُ كَاتِبَةٌ

وَالضَّرْبُ يُغْرِبُ وَالْأَبْدَانُ تَسْتَطِرُ^(٢)

٢٤- حَتَّى إِذَا عَبَّ مِثْلَ الْبَحْرِ جَحَفَلْنَا

وَمَدَّ فَيْضًا عَلَى أَعْدَائِنَا جُزِرُوا

٢٥- أَضْلَوْهُمْ جَا حَا يَشْوَى الْوُجُوهَ وَقَدْ

حَمَى الْوَطِينُ وَنَارُ الْحَرْبِ تَسْتَعِرُ

٢٦- وَأَخْرَقَتْهُمْ سِرَاعًا كُلُّ صَاعِقَةٍ

مِّنَ السُّيُوفِ بِنِيرَانٍ لَهَا شَرَرُ

٢٧- لَا ذُوَا بِشْمٍ شَمَارِيخِ الْجِبَالِ فَمَا

حَمَتْهُمْ قُلُلٌ^(٣) مِنْهَا وَلَا مُغَرُّ^(٤)

(١) في نهاية الأرب: «يَحْقُطُ» ولم نعثر لها على معنى، ومن ثمَّ آثرت رواية الدَّوَادِرِيِّ في كنز الدرر. راجع نهاية الأرب ٣٢ / ٥٢ وكنز الدرر ٩ / ٩٥ .

(٢) تستطر: تصطف كالسطر من الكتاب والشجر، والمقصود أنها تهوى على الأرض إلى حوار بعضها كأنها مسطورة أو مصفوفة.

(٣) قُلُلٌ: جمع قُلَّةَ وهي أعلى الجبل، القاموس المحيط ٤ / ٣٩ - ٤٠ .

(٤) مُغَرُّ: في كنز الدرر «صور»، وقال محقق نهاية الأرب: لعل الشاعر جمع مغارة على مغر، وأقترح أنها قد تكون «سُور» بضم السين، وفتح الواو على أنها جمع سور بضم السين وسكون الواو. راجع كنز الدرر ٩ / ٩٥، ونهاية الأرب ٣٢ / ٥٢ هامش رقم ٦، والقاموس المحيط ٢ / ٥٢ .

٢٨- وَمَزُقُوا شُرَدَا بَيْنَ الزَّحَامِ فَكَمْ

شَلُو^(١) تَنَازَعَ فِيهِ الذُّبُّ وَالنَّمِرُ

٢٩- أَيْنَ الْمَفَرُّ وَقَدْ حَامَ الْحِمَامُ بِهِمْ

هِيَهَاتَ لَا مَلْجَأَ يُرْجَى وَلَا وَزَرَ^(٢)

٣٠- نَادَى بِهِمْ صَارِخٌ أَغْرَى الْفَنَاءَ بِهِمْ

فَإِنْ سَأَلْتَ فَلَا خُبْرٌ وَلَا خَبَرٌ^(٣)

٣١- كَمْ قَدْ سَهَرْتُمْ دُجَى مِنْ خَوْفِهِمْ حَذَرًا

وَالْآنَ نَامُوا فَلَا خَوْفٌ وَلَا حَذَرٌ

٣٢- قُولُوا لِغَازَانٍ يَا ذَا مَا لَعَلَّكَ أَنْ

تَرَوْعَ مِنْ مَخْلَبِ الرُّبَالِ^(٤) يَا بَقَرُ

٣٣- تِلْكَ الْجُمُوعُ الَّتِي وَافَى يُدِلُّ بِهَا

تَاللَّهِ مَا بَلَغُوا سُؤْلًا وَلَا وُصْرُوا

٣٤- جَاءُوا وَقَدْ حَفَرُوا مِنْ مَكْرِهِمْ قُلُوبًا^(٥)

أَلْقَاهُمْ اللَّهُ قَسْرًا فِي الَّذِي حَفَرُوا

(١) الشَّلُو: الجسد من كل شيء، وكلُّ مسلوخٍ أُكِلَ منه شيءٌ وبقيت منه بقية. القاموس المحيط ٤/ ٣٤٢.

(٢) الوزر: الجبل المنيع، وكلُّ معقلٍ، والملجأ، والمعتصم. السابق ٢/ ١٥٢.

(٣) الخبر بضم الخاء وسكون الباء: العلم بالشيء، ويفتحها النباء. السابق ٢/ ١٦.

(٤) الرُّبَال: الأسد والذئب. السابق ٣/ ٣٦٨.

(٥) القُلْبُ: جمع قلب، وهي البئر قبل أن تطوى، يعني قبل أن تبنى بالحجارة ونحوها.

٣٥- وَسَكَّرُوا فِي أَرْضِهَا مُبَادِرَةً

وَالآنَ قَدْ حَصَدُوا أَضْعَافَ مَا بَذَرُوا

٣٦- وَافَى بِهِمْ أَجَلٌ يَمْشَى عَلَى مَهَلٍ

حَتَّى نَحَاهُمْ فَلَا عَيْنٌ وَلَا أَنْثَرُ

٣٧- لَمْ يَنْفِرُوا خِيفَةً مِنْ كُلِّ قَسُورَةٍ

وَقَرَّرَ جَمْعُهُمْ إِلَّا وَهُمْ حُمُرُ

٣٨- أُمُّوا الْفُرَاتَ وَقَدَّرَامُوا النِّجَاةَ فَكَمْ

حَلَّتْ بِهِمْ عِبْرٌ فِيهَا وَمَا اعْتَبَرُوا

٣٩- مَرَائِرُ الْقَوْمِ مِنْ خَوْفٍ قَدْ انْفَطَرَتْ

وَالْكُلُّ مِنْ قَبْلِ عِيدِ الْفِطْرِ قَدْ نُجِرُوا

٤٠- جَمِيعُهُمْ قُتِلُوا صَبْرًا^(١) وَأَعْظَمُهُمْ

جَمِيعُهَا بِضَوَاحِي جِلْقِي صُيِّرُوا

٤١- لَمْ يَقْبَرُوا فِي نَوَافِسٍ وَلَا جُدَّتِ

وَلَأَنَّهُمَا فِي بَطُونِ الْوَحْشِ قَدْ قُبِرُوا

٤٢- وَالطَّيْرُ تَرَعَى نَهَارًا لَحْمَهُمْ فَإِذَا

مَا اللَّيْلُ جَنَّ فَفَى أَفْحَافِهِمْ^(٢) تَكْرُ^(٣)

(١) قُتِلُوا صَبْرًا: الصبر هو نصب الإنسان للقتل، وكل من قُتِلَ في غير معركة ولا حرب ولا خطأ، فإنه مقتول صبراً، اللسان ٤/ ٢٣٩١.

(٢) الأفحاف: جمع قحف، والقحف العظم الذي فوق الدماغ.

(٣) تكرا: تبيت، وتُعشش.

٤٣- فَخَذَ عَزَاءَكَ فِيهِمْ إِنَّهُمْ أَمَمٌ

هُمُ اللَّعَاوِسُ^(١) إِنْ قَلُّوا وَإِنْ كَثُرُوا

٤٤- كَمْ كَابَرُوا الْحِسَّ فِي قَصْدِ الشَّامِ وَكَمْ

قَدْ جَرَّبُوا حَظَّهُمْ بِالشَّامِ وَاخْتَبَرُوا

٤٥- فَقَاتِلُوهُمْ جَمِيعًا إِنَّهُمْ تَرَرٌ

كَمْ أَرْسَلُوا رُسُلَهُمْ تَتَرَى وَكَمْ مَكَّرُوا

٤٦- هُبُوا إِلَى سَيْسٍ مِنْ أَحْلَامٍ رَفَدَتْكُمْ

وَسَارِعُوا فِي طِلَابِ الثَّأْرِ وَابْتَدِرُوا

٤٧- بِكُلِّ غَيْرَانٍ أَخَذَ الرُّوحَ هِمَّتُهُ

فِي غَيْرِ نَفْسِ الْمُرْدَى مَالَهُ وَطَرُ

٤٨- أَيْزَقْدُ اللَّيْلِ فِي أَمْنٍ وَفِي دَعَا

عَنْ كَيْدِ قَوْمٍ لَهُمْ فِي شَأْنِكُمْ سَهْرٌ

٤٩- إِنْ تَتْرُكُوهُمْ فَإِنَّ الْقَوْمَ مَا تَرَكُوا

يَوْمًا عَلَيْكُمْ وَلَا أَبْقُوا وَلَمْ يَنْذَرُوا

٥٠- أَمَا رَأَيْتُمْ وَعَايَيْتُمْ وَقَدْ فَعَلُوا

فِي الصَّالِحَةِ مَا لَا تَفْعَلُ التَّرَرُ

٥١- اشفوا صُدُورَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ غُرَا

عَلَى نَسَائِكُمْ يَا قَوْمُ وَاذْكُرُوا

(١) اللعاس: جمع لعوس، وهو الأكل الحريص الشرير. ومنه الذئب اللعاس.

٥٢- كَمْ مِنْ عَجُوزٍ وَمِنْ شَيْخٍ وَمُكْتَهِّلٍ^(١)

وَمِنْ فِتَاةٍ نَهَاها الْحُسْنُ وَالْحَقَرُ

٥٣- يَنْضَاءُ خُرْعُوبَةٌ^(٢) بِكِرٍ مُحَجَّجَةٍ

لَا الشَّمْسُ تَنْظُرُهَا صَوْنًا وَلَا الْقَمَرُ

٥٤- وَذَاتِ بَغْلٍ مُحَبَّأَةٌ مُخَدَّرَةٌ

مِنْ دُونِهَا تُضْرَبُ الْأَسْتَارُ قَدْ أَسْرُوا

٥٥- وَمُطْفِلٍ أَتَكَلَّوْا وَجَدًا بِوَاحِدِهَا

وَحَامِلٍ أَجْهَضَتْ خَوْفًا وَقَدْ ذَكِّرُوا

٥٦- وَمَرْبَعٍ أَقْفَرُوا مِنْ بَعْدِ سَاكِنِهِ

وَعِفْدٍ شَمْلٍ نَظِيمٍ جَامِعٍ نَشَرُوا

٥٧- وَكَمْ أَرَاقُوا وَكَمْ سَاقُوا وَكَمْ هَتَكُوا

وَكَمْ تَمَلَّأُوا^(٣) بِهَا نَالُوا وَكَمْ فَجَرُوا

٥٨- وَحَرَّقُوا فِي نَوَاحِيهَا قَوَا حَرِبَا

وَحَرَّبُوا الشَّامِخَ الْعَالِي وَكَمْ دَنَرُوا

(١) المكتهل من الرجال: الذي جاوز الثلاثين، ووخطه المشيب.

(٢) خرعوبة: أصل الخرعوب: الغصن لِسْتِهِ، وقيل: هو القضيبي السامق الغض، وامرأة خرعوبة وخُرْعُوبَةٌ: رقيقة العظم كثيرة اللحم، ناعمة كأنها خرعوبة من خرايب الأغصان، من بنات سستها.

(٣) تملأوا بها نالوا: تمتعوا به.

٥٩- وَجَامِعُ التَّوْبَةِ الْمَحْرُوقُ مَهْجَتُهُ

يُشِيرُ لَا تَوْبَةَ لِلْقَوْمِ إِنْ ظَفَرُوا

٦٠- إِشَارَةُ تَرَكُّ الْأَنْفَاسِ صَاعِدَةً

لَهَا الدَّمُوعُ مِنَ الْأَمَاقِ تَنَحِدِرُ

٦١- لَهْمُ حَزَائِنٍ فِي قَلْبِي مُجَبَّأَةٌ

تَكَادُ مِنْ حَرِّهَا الْأَكْبَادُ تَنْفَطِرُ

٦٢- فَمَا يُثَبِّطُكُمْ عَنْ أَخْذِ ثَأْرِكُمْ

هَبُوا سِرَاعًا وَخَافُوا اللَّوْمَ يَا غَيْرُ^(١)

٦٣- وَقُوهُمْ الْحَرْبَ إِنْصَافًا وَمَعْدَلَةً

وَحَرِّرُوا ثُوبَ الْأَيَّامِ وَاعْتَبِرُوا

٦٤- لَا يَظْلِمَنَّ بَعْضُكُمْ بَعْضًا بِخَرْدَلَةٍ

وَلَا يَدْعُ عِنْدَهُ حَقًّا وَلَا يَذَرُ

٦٥- وَسَارِعُوا وَاقْتُلُوهُمْ إِنْهُمْ قَتَلُوا

وَيَاذِرُوا وَأَسِرُّوهُمْ مِثْلَمَا أَسَرُّوا

٦٦- جُوسُوا دِيَارَهُمْ وَاسْبُوا حَرِيمَهُمْ

وَأَوْقِرُوا^(٢) ضِعْفَ مَا أَوْعَوْا^(٣) وَمَا وَقَرُوا^(٤)

(١) غَيْرُ: جمع غيور، وهو فعولٌ من الغَيَرَةِ وهي الحَمِيَّةُ والأنفة.

(٢) أَوْقِرُوا: أي احمِلُوا عَلَى بَغَالِكُمْ وَحَمِيرِكُمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَثَرَوَاتِهِمْ.

(٣) ضِعْفَ مَا أَوْعَوْا: أَصْلُ الْإِيْعَاءِ: الْجَمْعُ وَالْمَقْصُودُ ضِعْفُ مَا جَمَعُوا، وَنَهَبُوا، وَسَرَقُوا مِنْ أَمْوَالِكُمْ، وَثَرَوَاتِكُمْ، وَخَيْرَاتِ بِلَادِكُمْ.

(٤) وَقَرُوا: جَمَعُوا.

٦٧- سَجَلًا يَسْجَلُ فَإِنَّ الدَّهْرَ ذُو نُوبٍ

مَنْ ذَا يُغَالِبُ مَا يَأْتِي بِهِ الْقَدَرُ

٦٨- بَزَوْهُمْ الْمَلِكَ قَهْرًا عَنْ جَوَارِكُمُ

وَحَرَّبُوا كُلَّ مَا شَادُوا وَمَا عَمَرُوا

٦٩- فَمَا يُفَكِّرُ فِي أَدْبَارِ عَاقِبَةِ

وَيَحْزِمُ الْأَمْرَ إِلَّا مَنْ لَهُ نَظَرُ

٧٠- وَلَا يَعَافُ شَرَّابَ الذَّلِّ عَنْ ظَمَأٍ

وَيُؤَمِّقُ الْعِزَّ إِلَّا مَنْ لَهُ خَطَرُ

٧١- فَمَهِّدُوا بِالطُّبَا مَجْرَى سَوَابِقِكُمْ

مَا يَرْفَعُ الذِّكْرَ إِلَّا الصَّارِمُ الذِّكْرُ

٧٢- وَخَلِّدُوا فِي الْمَعَالِ مَا تُعْنِعُهُ^(١)

عَنْكُمْ وَتُرَوِّى بِهِ الْأَخْبَارُ وَالسَّيْرُ

٧٣- فَكُلْ ذَنْبٍ جَنَاهُ الدَّهْرُ مَعْتَمِدًا

فِي جَنْبٍ مَا أَبْقَتِ الْآيَامُ مُغْتَفَرُ

٧٤- يَا أَهْلَ جِلْقٍ أَمْنًا فِي مَسَاكِنِكُمْ

وَعَامِلُوا اللَّهَ رَبَّ الْعَرْشِ وَانْزَجِرُوا

٧٥- صُومُوا وَصَلُّوا وَزَكُّوا وَارْحَمُوا وَصِلُّوا

وَابْغُوا النِّجَاةَ وَحُجُّوا الْبَيْتَ وَاعْتَمَرُوا

(١) العنينة: الرواية بالإسناد.

٧٦- ذرُوا التَّكَاثُرَ فَالْدُّنْيَا لِمَنْ زُوِيَتْ^(١)

فِي جَنْبِ مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ مُحْتَقِرُ

٧٧- فَالْوَقْتُ أَقْرَبُ وَالْأَنْفَاسُ سَائِرَةٌ

وَالْعُمُرُ مَنْصَرِمٌ وَالْمَرْءُ مُحْتَضِرُ

٧٨- وَلَا تَخَافُوا مِنَ النَّارِ بَجَلْبَةِ

مِنْ بَعْدِ مَا ارْتَفَعَ التَّدْلِيسُ وَالْغَرَرُ

٧٩- لَمْ يَطْلُبُوا جِلْدًا بَغْيًا يَظْلِمُهُمْ

إِلَّا وَرَدُّوا عَلَى الْأَغْقَابِ وَانْكَسَرُوا

٨٠- حَاشَا دِمَشْقَ مِنَ الْأَسْوَاءِ تَطَرُّقُهَا

أَوْ أَنْ تُغَيَّرَ هَا عَنْ وَصْفِهَا الْغَيْرُ

٨١- مَلَائِكُ اللَّهِ تَحْمِيهَا وَتَحْرُسُهَا

تَعَاقَبُوا وَلَهَا مِنْ رَبِّهَا خَفَرُ

٨٢- وَفِي جَوَارِ خَلِيلِ اللَّهِ مَا بَرَحَتْ

وَحُضْرَةُ الْقُدُسِ قُلُوبُ كَيْفَ مُحْتَقِرُ

٨٣- بِاللَّهِ عَدَوِي عَلَى مَنْ رَامَهَا بِأَذَى

وَبِالْخُلَفَاءِ وَالسُّلْطَانِ أَنْتَصِرُ

٨٤- هُمَا مَلَاذِكُكُمْ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ

بِالرُّوحِ أَفْدِيهَا وَالسَّمْعَ وَالْبَصْرُ

(١) زُوِيَتْ: جُمِعَتْ.

٨٥- إِذَا تَأَمَّلْتَ فَحَوَى مِرَّ حُكْمِهِمَا

لَمْ تَذَرِ أَثِمَهُمَا فِي عَذْلِهِ عَمَرُ

٨٦- وَلَوْ رَأَيْتَهُمَا يَوْمًا لَخَالِكَ أَنْ

موسى بن عمران قد وافاك والخضر

٨٧- هَمَّارُضِيْعَا لِبَانٍ عِفَّةً وَتُقْسَى

وَحُسْنُ ذِكْرِ شِذَاهُ فَائِحٌ عَطِرُ

٨٨- فَذَا مَلِيكَ لَكُمْ طَابَتْ أَرْوَمُهُ

وَذَا أَمِيرٍ بِأَمْرِ اللَّهِ يَأْتُمِرُ

٨٩- أَبُو الرَّبِيعِ سُلَيْمَانُ الَّذِي شَهِدَتْ

بِفَضْلِهِ الْمُسْتَفَاضِ الْبَدْوُ وَالْحَضَرُ

٩٠- وَزَمْزَمٌ وَالصَّفَا وَالْمَازِمَانُ^(١) مَعَا

وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحَجَرُ وَالْحَجَرُ^(٢)

٩١- خَلِيقَةُ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَطَاعَتُهُ

فَرَضٌ عَلَيْكُمْ وَهَذَا الْقَوْلُ مُخْتَصَرُ

٩٢- مَا زَالَ مُسْتَكْفِيًا بِاللَّهِ مَعْتَصِمًا

مُسْتَنْصِرًا مُسْتَعِينًا وَهُوَ مُتَّصِرُ

(١) المازمان: اسم للموضع الذى بين المشعر الحرام وعرفه. اللسان ١ / ٧٤.

(٢) الحجر: حجر الكعبة، وهو اسم الحائط المستدير إلى جانب الكعبة الغربى، والحجر:

الحجر الأسود وقد أفرده إعظاماً له. اللسان ٢ / ٨٧١، ٧٨٤.

٩٣- لولاه فى الأرض قد ماتت جوانبها

وما سقاها إذا غيٓثٌ ولا مطرٌ

٩٤- خليفةٌ من بنى العباسِ باقيةٌ

به إلى الله نستسقى فنمطرُ

٩٥- ضاهت يداه عهد الغيثِ فانهملت

والغيثُ مُندفقُ الشُّبُوبِ منهمرُ

٩٦- لو مَسَّ عودًا يَينسًا بطنُ راحتهِ

أعادَه وهو رطبٌ يانعٌ خضرُ

٩٧- ماذا أقولُ بمدحِهِ وَقَدْ ثَلَيْتُ

فى مدحِ آبائه الآياتُ والسُّورُ

٩٨- جاءتِ بنَغَمِهِمُ التوراةُ مُعْرِبةٌ

وَمُحَكَّمُ الذِّكْرِ وَالْإِنْجِيلُ وَالزُّبُرُ

٩٩- به إلى الله ضَجُّوا فى حوائجِكُم

وبعده بالمليكِ النَّاصِرِ انتصروا

١٠٠- مَلِكٌ أُعِيدَ به عَصْرُ الشَّبَابِ لَكُمْ

مسترغدا صافيا واستؤنفَ العمرُ

١٠١- ترى الملوكَ صفوفاً حوله زُمرا

من فرطِ هيئته لا يرجعُ البصرُ

١٠٢- تَذِلُّ أَعْنَاقَهُمْ صَغْرَى لِبَطَاعَتِهِ

وليس يعصونه أمراً إذا أمرُوا

١٠٣- صُونُوا جِيَادَكُمْ اللَّاتِي بِكُمْ لِحَبَّتْ^(١)

في بارقِ الحربِ والرَّمْضَاءِ تَسْتَعِرُّ

١٠٤- إِنَّا لَنَرْجُوهُ مِنْ بَغْدَادَ يُنْهَلُّهَا

بِهَاءٍ دِجْلَةٍ يَرْوِيهَا فَتَصْطِدِرُ^(٢)

١٠٥- وَيَجْمَعُ الشُّمْلُ فِي دَارِ السَّلَامِ بِمَنْ

يَوْذُهَا وَيَوْذُونِ الذِي نَذَرُوا

١٠٦- يَوْمُهَا وَإِمَامَ الْمُسْلِمِينَ مَعَا

ثَقُوا بِقَوْلِي فَهَذَا مِنْهُ مُنْتَظَرُ

١٠٧- فَالْشَّامُ وَافَاهُ مَعَ بَغْدَادَ فِي قَرْنٍ

وَمِصْرُ فِي مُلْكِهِ وَالْبَرُّ وَالْبَحْرُ

١٠٨- وَالْعَرْبُ وَالْعُجْمُ فِي مِيمُونِ قَبْضَتِهِ

وَمِنْ سَطَى بِأَسِهِ قَدْ حَارَتْ التَّرُّ

١٠٩- تَنْشَرُوا فِي الْفَلَاسُودِ الْوُجُوهُ وَقَدْ

طَوَى بِأَبْيَضِهِ الْبَتَّارُ مَا نَشَرُوا

(١) لِحَبَّتْ: جاء في اللسان «اللبب: الصوت، والصياح، والجلبة، تقول لجب، بالكسر»

اللسان ٥ / ٣٩٩٨.

(٢) تصطدر: افتعال من الصدور، وهو الرجوع عن المكان المورود.

١١٠- فِدَامَ لِلدِّينِ وَالْدُّنْيَا يَسُوسُهُمَا

فَكُنْ فِيهِ لَهُ حِرْزٌ وَمُسْتَرٌ

١١٢- عَلَى الدَّوَامِ وَلَا زَالَتِ مَدَائِحُهُ

نَفْسِي وَغَرُّ الْقَوَافِي فِيهِ تُبْتَكَرُ

١١٣- وَافَاكُمْ بِعَزِيزِ النَّصْرِ فِي نَقْرِ

وَقَاهُمُ اللَّهُ مَا أَوْفَاهُمُ نَقْرُ

١١٤- قَدْ أَيقَنُوا أَنَّهُمْ جَادُوا بِأَنْفُسِهِمْ

مِنْ أَجْلِ ذَا ظَهَرَ الْإِسْلَامُ مُذْ ظَهَرُوا

١١٥- كَمْ فَرَّجُوا مَازَقًا ضَنْكًا بِمَعْرَكِ

وَكَابَدُوا فِي مَجَالِ الْمَوْتِ وَاصْطَبَرُوا

١١٦- فَبَيَّضَ اللَّهُ مِنْهُمْ أَوْجُهًا كَرُمَتْ

فِيهِمُ بِالْأَيْدِي الْبَيْضِ قَدْ عَمَرُوا

١١٧- وَحَاطَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا وَلَا بَرَحُوا

فِي ذِمَّةِ اللَّهِ إِنَّ غَابُوا وَإِنْ حَضَرُوا



الفصل الثاني

المبدع والمتلقى وشبكة الظروف

أحب أن أشير - بادئ ذي بدء - إلى ما أعتقد من أن القصيدة الشعرية -
أية قصيدة شعرية - «ليست مجرد حقيقة أدبية، ولكنها حقيقة اجتماعية أيضاً، أى
إن القصيدة تُنتج في سياق يتضمن حياة المؤلف، والمتلقى الذى يُكتب (أو
تكتب) له، وعلاقات مختلف العوامل الاجتماعية، والتاريخية، والسياسية التى
تمثل الخلفية، ومن ثم تقع القصيدة في شبكة الظروف حين ينتجها الشاعر،
وحين يتلقاها القارئ»^(١).

وانطلاقاً من هذا الموقف تجدر الإشارة إلى أن تاريخ هذا النص يعود إلى
أوائل القرن الثامن الهجرى؛ إذ أنشأه صاحبه القاضى جمال الدين أبو بكر عبد
القاهر بن محمد بن عبد الواحد بن محمد التبريزى الشافعى سنة اثنتين وسبعمئة من
الهجرة (٧٠٢ هـ) غِبَّ انتصار المصريين على التتيرين في واقعة شقحب^(٢) أو مرج
الصفّر^(٣) في عهد ثالث خلفاء بنى العباس بالديار المصرية المستكفى بالله أبى الربيع
سليمان بن الحاكم بأمر الله أبى العباس أحمد الذى ينتهى نسبه إلى الراشد بالله أبى
جعفر المنصور الخليفة الثلاثين من خلفاء بنى العباس بالعراق^(٤).

(١) نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر، ديفيد بشنبدر، ترجمة عبد المقصود عبد الكريم،
ص ١٢١، القاهرة، هيئة الكتاب ١٩٩٦ م.

(٢) جاء بهامش النجوم الزاهرة: «قرية في الشمال الغربى من غباغب، ويقال لها تل شقحب
ذكرها دسود في الكلام عن وادى العجم من ضواحي دمشق». النجوم الزاهرة لجمال
الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى ٨ / ١٥٩ هامش رقم ٣.

(٣) جاء بهامش نهاية الأرب للنويرى «ضبطها محقق السلوك ١: ٦٠ بتشديد الصاد وضمها، وفتح
الفاء، وهو أحد المروج الواقعة حول مدينة دمشق». نهاية الأرب ٣٢ / ٢٨ هامش رقم ٤.

(٤) مآثر الإنافة في معالم الخلافة للقلقشندي، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ٢ / ١٣٢ وما
بعدها الكويت ١٩٦٤ م.

وكان الذى جيَّش الجيوش وقادها إلى هذه الواقعة هو السلطان الناصر محمد بن قلاوون تاسع سلاطين الدولة المملوكية الأولى بمصر والشام وذلك فى زمن سلطنته الثانية^(١).

وقد ذكر خبر هذه الواقعة بالتفصيل كلُّ من أبى بكر بن عبد الله بن أيبك الدوادارى المتوفى سنة ٧٣٢هـ فى الجزء التاسع من كتابه «كنز الدرر، وجامع الغرر»، وهو الجزء الذى قصره على ترجمة الملك الناصر محمد بن قلاوون، وأسماء «الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر»^(٢)، وشهاب الدين النويرى المتوفى ٧٣٣هـ فى كتابه «نهاية الأرب فى فنون الأدب»^(٣)، وجمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى المتوفى ٨٧٤هـ فى كتابه «النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة»^(٤)، وابن إياس الحنفى المتوفى ٩٣٠هـ فى القسم الأول من الجزء الأول من كتابه «بدائع الزهور فى وقائع الدهور»^(٥).

وتشير كتب هؤلاء المؤرخين وتسجيلاتهم لأحداث الواقعة وما سبقها من مقدمات إلى مجموعة الأسباب التى دفعت الناصر محمد بن قلاوون إلى لقاء

(١) تولى الناصر محمد بن قلاوون السلطنة ثلاث مرات: الأولى ٦٩٣هـ ومكث فيها أحد عشر شهرا، والثانية كانت عام ٦٩٨هـ ومكث فيها عشر سنين إلى عام ٧٠٨هـ، والثالثة كانت عام ٧٠٩هـ وظل بها إلى أن وافته المنية ٧٤١هـ. راجع التحفة المسكّية فى الدولة التركية لابن دقماق ص ٩٤ وما بعدها.

(٢) ينظر الكتاب المذكور من صفحة ٨٢ إلى صفحة ١٠٠.

(٣) ينظر الكتاب المذكور المجلد رقم ٣٢ من صفحة ٢٦ إلى صفحة ٥٨.

(٤) ينظر الكتاب المذكور المجلد الثامن من صفحة ١١٧ إلى صفحة ١٦٩.

(٥) ينظر الكتاب المذكور الجزء الأول القسم الأول من صفحة ٤١٢-٤١٦.

التار في هذه المعركة، وتصميمه على دحرهم بما أعدَّ لهم من عددٍ وعدَّة، وأول هذه الأسباب ما أعلنه من رغبته في نصره الدين الحنيف، ونجدة أهل البلاد الشامية الذين أذهلهم الفَرَقُ من أنباء توجُّه التار إليهم.

وهنا يجب أن نقف وقفةً لنبيِّن أنَّ المصادر التاريخية قد أشارت إلى أنَّ ملك التار في ذلك الوقت كان قد أسلم، وسمى نفسه باسم «غازان محمود» وأرسل وفدًا إلى الناصر محمد بن قلاوون يترأسهم قاضى الموصل كمال الدين الشافعى^(١)، وكان مع الوفد كتاب يعرض فيه القائد الترى الصلح على السلطان المملوكى، إلا أن الناصر محمدًا قد توجس خيفةً من صنيع الغازان محمود، وخشى أن يكون إظهار إسلامه مكيدة للإيقاع بالمماليك، وأراد السلطان أن يحتاط لنفسه وفهم قاضى الموصل - وكان على ما يبدو ورعًا تقيًا^(٢) - ما يدور بخلد السلطان فذكر له ولحاشيته «أنه ما يعلم من غازان وخواصه غير الصلح، وحقن الدماء، ورواح التجار ومجنيئهم، وإصلاح الرعية»^(٣) ثم أشار عليهم بما رواه عنه ابن تغرى بردى حيث قال «ثم إنه قال لهم: والمصلحة أنكم تَتَفَقَّوْنَ وَتَبْقَوْْنَ على ما أنتم عليه من الاهتمام بعدوكم، وأنتم فلكم عادة في كل سنة تخرجون إلى أطراف بلادكم لأجل حفظها، فتخرجون على عادتكم، فإن كان

(١) النجوم الزاهرة: ٨ / ١٣٥.

(٢) أثنى الناصر محمد في رسالته التى بعثها إلى القائد الترى على القاضى الموصلى بقوله: «ونحن نعلم علمه ونُسكُه ودينه وفضله المشهور، وزهده في دار الغرور، ولكن قاضى القضاة غريب عنكم، بعيد منكم، لم يطلع على بواطن قضاياكم وأموركم، ولا يكاد يظهر له خفيُّ مستوركم». النجوم الزاهرة ٨ / ١٤٥.

(٣) النجوم الزاهرة: ٨ / ١٣٩.

هذا الأمر خديعةً فتكونون مستيقظين، وإن كان الأمر صحيحًا فتكونون قريبين منهم فينتظم الصلح، وتحقن الدماء فيما بينكم^(١).

ويبدو أنَّ ما أشار به القاضي الموصلى على السلطان المملوكى ورجال حاشيته قد وقع منهم موقعًا عظيمًا، وآية ذلك أنهم أكرموا هو والذين أُرسلوا معه^(٢)، وردوهم إلى القائد التترى بخطاب يطلب فيه الناصر محمد أن يرسل الغازان إليه برجل من خواص دولته يكون ممن إذا قطع بأمر وقف المغول عنده، وذلك للتشاور معه فيما يجب أن تكون عليه الأمور من الصلح^(٣).

وتشير المصادر التاريخية إلى أن القائد التترى لم يُجب الناصر محمدًا إلى ما طلب، وعزم على الركوب وقصد الشام، مما حدا بالناصر محمد إلى الاستعداد له وترقب تحركاته.

هذا هو السبب الأول أو الرئيسى فى وقوع هذه المعركة كما نصّت عليه كتابات المؤرخين التى سبقت الإشارة إليها، إلا أننى أتصور أنه إلى جوار هذا السبب الأساسى كانت هناك مجموعة أخرى من الأهداف أو الغايات التى حركت الناصر محمدًا ودفعته إلى ملاقة التتار فى مرج الصُفّر.

وتأتى فى مقدمة هذه الأهداف أو الغايات رغبة الملك الناصر محمد بن قلاوون فى توسيع مملكته، وتوطيد دعائمها، وإظهار قوتها وشدة بأسها، وإرهاب خصومها، والثأر لنفسه وجيشه من جيش التتار وقائده غازان الذى

(١) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٢) السابق نفسه: ٨ / ١٤٢.

(٣) السابق نفسه: ٨ / ١٤٦.

ركبه الغرور بعد إنزاله هزيمة ساحقة بالجيش المموكى عند وادى الخازندار في ربيع الأول من عام تسعة وتسعين وستمائة من الهجرة^(١).

على أن هناك سبباً آخر من أسباب هذه المعركة تجدر الإشارة إليه في هذا المقام، وهو أن الناصر محمداً أراد أن يثأر لنفسه، ولأخيه الأشرف خليل من جيش المغول كله، ذلك أن الأشرف خليل كان قد مات مقتولاً عام ٦٩٣ هـ على يد حسام الدين لاجين المنصوري، ثم إن هذا القاتل كان قد اختبأ عن الناصر محمد في مئذنة مسجد أحمد بن طولون، وكان ذلك بإيعاز من مدير المملكة المصرية آنذاك زين الدين كتبغا المنصوري، وما إن خرج حسام الدين من مخبئه بعد أن هدأت الأمور حتى ثارت ممالك الأشرف خليل، وخرجت تطالب بالقصاص من قاتله، فما كان من زين الدين كتبغا إلا أن ألقى القبض عليهم ونكل بهم، ثم أخذ حسام الدين لاجين يُخَوِّفُ صاحبه كتبغا من الناصر محمد إذا كبر وترعرع حيث قال له: «متى كبر الملك الناصر لا يقيقك البتة، ولا يبقى أحداً ممن تعامل على قتل أخيه الأشرف... والمصلحة خلعه وسلطنتك»^(٢).

ويشير المؤرخون إلى أن كتبغا لم يُلقَ بالاً - في أول الأمر - إلى كلام لاجين، ثم ما زال لاجين به إلى أن قام بطلب «الخليفة والقضاة والأمراء، وتكلم معهم في عدم أهلية الناصر محمد للسلطنة لصغر سنه، وأن الأمور لا بُدَّ لها من رجلٍ

(١) يراجع في واقعة وادى الخازندار، وهزيمة جيش الناصر محمد فيها: نهاية الأرب للنتيرى ٣١ / ٣٨٥ وما بعدها، وكنز الدرر للدَّوادارى ٩ / ١٥ وما بعدها، والغزو المغولى أحداث وأشعار، لمأمون فريزجرار، ص ١٣٥ وما بعدها.

(٢) النجوم الزاهرة: ٨ / ٤٩.

كاملٍ تخافه الجند والرعية وتقف عند أوامره ونواهيه^(١). واستجاب الخليفة والقضاة والأمراء لطلب كتبغا «وُخْلِجَ الملك الناصر محمد من السلطنة وتسلطن كتبغا، وجلس على تخت الملك»^(٢).

وكل هذه الجرائم التي ارتكبها زين الدين كتبغا بدءًا من الإشراف على قتل الأشرف خليل، ومرورًا بإخفاء القاتل، والتنكيل بمن طالبوا بالقصاص منه، والسعى في عزل الناصر محمد عن السلطنة، كل هذه الجرائم قد أوغرت صدر الناصر محمد وملأته غيظًا وحقنًا ورغبةً في التشفى والانتقام لا من كتبغا وحده، وإنما من جنسه كله؛ إذ كان «أصله من التتار من سبى وقعة حمص الأولى التي كانت في سنة تسع وخمسين وستائة (٦٥٩ هـ) فأخذه الملك المنصور قلاوون وأدبه ثم أعتقه، وجعله من جملة مماليكه، ورقاه حتى صار من أكابر أمرائه»^(٣).

كانت هذه هي شبكة الظروف المعقدة التي دفعت السلطان الناصر محمد ابن قلاوون إلى التحفز للاشتباك مع التترين متى سنحت الفرصة لذلك، وحين وردت الأنباء من حلب في مطلع العام الثاني من القرن الثامن الهجري إلى السلطان بعزم قازان على التحرك إلى بلاد الشام خرج الجيش المصري لملاقاته، وكان عدده ثلاثة آلاف جندي، وكان ذلك في شهر رجب من عام ٧٠٢ هـ، وفي أثناء سير الجيش المصري إلى بلاد الشام علموا بنزول قازان على الفرات، ووصول عساكره إلى الرحبة، وأنه بعث بشمانين ألف مقاتل إلى الشام يتقدمهم

(١) النجوم الزاهرة: ٨ / ٤٩.

(٢) السابق نفسه ٨ / ٤٩.

(٣) السابق نفسه ٨ / ٥٥.

أحد أصحابه وهو قطلوشاه، وأنه كتب إلى نائب الشام عز الدين أيبك الأفرم يستميله، ويرغبه في الإذعان له ولجيشه، وأن الفزع من التتار كان قد استولى على الناس في حلب وحماه، ودفعهم إلى الخروج من ديارهم، والفرار إلى دمشق التي مالبت أهلها أن استحوز عليهم الفرق مما سمعوه من إخوانهم الحلبين والحمويين عن بطش التتار، وفتكهم بأعدائهم، ونهبهم الأموال والثروات والخيرات التي يجدونها فيما يستولون عليه من البلدان، وقتلهم الشيوخ والأطفال والعجائز، وهتكهم الأعراض وفعلهم المنكرات، كل هذا الذي سمعه الدمشقيون جعلهم يفكرون في ترك مدينتهم، والهروب منها، قال ابن تغرى بردى: «فاستعد أهل دمشق للفرار، ولم يبق إلا خروجهم، فنودى بدمشق: مَنْ خرج منها حلّ ماله ودمه»^(١)، واللافت - هاهنا - أن صاحب النجوم الزاهرة لم يعيّن الذي قام بالمناداة أو أمر بها^(٢)، وكان لابد والموقف هكذا أن يتحرك فيلق من جيش الشام لدحر التتارين قبل أن يصلوا إلى دمشق، وتحرك الجيش الشامي إلى حماه، وسار جيش المغول للقائه، والتقى الجيشان الشامي والمغولي عند بلدة تعرف بالقريتين، واستطاع جيش المغول أن يكبد الجيش الشامي خسائر فادحة، وواصل التتار زحفهم حتى وصلوا إلى قرية اسمها «عرض»، وعندها وجدوا أنفسهم في مواجهة جيش مقداره ألف وخمسمائة فارس، ودار القتال بين الفريقين، وانكسر التتار في هذه الجولة، وعندما وجد قطلوشاه أن جيش صاحبه الغازان محمود قد تعرض لما تعرض له في عرض،

(١) النجوم الزاهرة: ٨ / ١٥٧.

(٢) تشير رواية اليوناني إلى دور الإمام ابن تيمية في هذه الموقعة تُنظر هذه الرواية في الروض الزاهر بتحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري ص ١٠١ وما بعدها.

جدَّ هو في السير إلى مشق، والتقى الجيشان مرة ثانية عند شقحب، أو في مرج الصُّفَر، بعد أن انضم الجيش المصرى بقيادة الناصر محمد بن قلاوون إلى جيش الشام، وكان الناصر محمد، والخليفة المستكفى بالله أبو الربيع سليمان وأمراء المماليك يقفون في القلب، وكانت ميمنة الجيش تتكون من عساكر حماة، وكانت ميسرته تتكون من عساكر حلب وصفد، ودارت رحى الحرب، واستطاع الجيش المغولى أن ينال من ميمنة الجيش المملوكى في أول الأمر إلى أن أدركها كلٌّ من القلب والميسرة، واستمر القتال بين الجيشين من ظهر يوم السبت الثانى من شهر رمضان المبارك من عام ٧٠٢هـ إلى عصر يوم الاثنين رابع أيام الشهر الفضيل حينئذ، حتى تمَّ للجيش المملوكى النصر.

ولقد أشاد المؤرخون باستبسال المماليك وتصميمهم على دحر عدوهم وإحراز النصر؛ يقول ابن تغرى بردى: «وألحت المماليك السلطانية في القتال، وأظهروا في ذلك اليوم من الشجاعة والفروسية ما لا يوصف»^(١)، ويصف فرحة السلطان والعامّة بالنصر فيقول: «وبات السلطان ليلته وأصبح يوم الثلاثاء وقد خرج إليه أهل دمشق، فسار إليها في عالم عظيم من الفرسان والأعيان والعامّة، والنساء والصبيان لا يحصيهم إلا الله تعالى، وهم يضجون بالدعاء والثناء والشكر لله سبحانه وتعالى على هذه المنّة، وتساقطت عبرات الناس فرحاً، ودُقَّتْ البشائر بسائر الممالك، وكان هذا اليوم يوماً لم يُشَاهَد مثله»^(٢).

ويتحدث الصفدى عن هذه المعركة فيقول: «والذى أعتقده أنه من حين

(١) النجوم الزاهرة: ٨ / ١٦٢.

(٢) السابق نفسه: ٨ / ١٦٣.

ظهر جنكيز خان ما جرى للمغول بعد واقعة عين جالوت، ولا إلى يومنا مثل واقعة شقحب، كادت تأتي على نوعهم فناءً، فإن الموت أهل بهم ورَّحِب، وما نجا منهم إلا مَنْ حصَّنه الأجل، أو اختار الأسر لما وجد من الوجل^(١).

ويرى ابن حجر العسقلاني أن هذا النصر الذى أحرزه الناصر محمد بن قلاوون على التتار فى شقحب كان سبباً من أسباب استقرار ملكه يقول: «لم ير أحدٌ مثل سعادة ملكه، وعدم حركة الأعداء عليه برّاً وبحراً، مع طول المدة، فمئذ وقعت شقحب إلى أن مات لم يخرج عليه أحد^(٢)».

وما أشار إليه ابن حجر العسقلاني من استتباب الأمر للناصر محمد بن قلاوون، وعدم خروج أحد عليه بعد انتصاره فى شقحب أرى أنه كان راجعاً إلى السياسة التى انتهجها هذا السلطان المنتصر بعد قفوله من المعركة، وجلوسه على تخت الملك، إذ ما لبث أن بعث برسالة إلى القائد التترى المهزوم يهدده فيها ويتوعده ويقول له: «لقد نصحتك فما أروعيت، وبذلت لك القول فما وعيت، وركبت فرس البغى أحمر كميث^(٣)».

والسلطان الناصر محمد فى هذه الفقرات من الخطاب يشير إلى ما سبق أن أومأنا إليه من أنه أرسل إلى القائد التترى قبل نشوب المعركة يطلب منه أن يقدم ما يدل على حسن نيته فى إثارة السلام، وتجنب الحرب، والرغبة فى الصلح، وذلك بأن يبعث رجلاً من خواص دولته للتفاوض مع الدولة المملوكية ورجالها، كما تشير هذه الفقرات أيضاً إلى إعراض الغازان، وعدم تقبله النصح،

(١) أعيان العصر وأعوان النصر لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى: ٦/٤.

(٢) الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني ٢٦٤ / ٤.

(٣) كنز الدرر: ١٢١ / ٩.

وولج الناصر محمد من تذكير الغازان محمود بالنصح القديم إلى تقديم نصيح آخر إليه في هذه الرسالة الثانية إذ قال له: «وإن شئت أن تقف معنا على الكتاب المبين، ولا تعثوا في الأرض مفسدين، فنخرج أنا وأنت عن بغداد والعراق، ونتركها لخليفة رسول الله إلى يوم التلاق، وإن سَوَّلت لك نفسك بخلاف ذلك، فأنت لا محالة هالك، وعمّا قليل يخلو منك العراق والعجم، وتندم حيث لا ينفعك الندم، وقد أوضحنا لك الحق فلا تميل، وهديناك إلى أقوم سبيل»^(١).

ثم تأتي بعد هاتين الفقرتين فقرّة يأخذ فيها التهديد شكلاً أكثر صرامة، وتبدو لغته أكثر وضوحاً وحدة؛ إذ يحذر الناصر محمد فيها الغازان محمود أن يمسّ مبعوثي الدولة المملوكية الذين حملوا إليه هذا الخطاب بأي لون من ألوان الأذى، ويطلبه بالإسراع في مغادرة بغداد؛ يقول: «وتتقدم بإرسال رسلنا المرسولة إليك، ولا تعوقهم يكون وبالأعلى عليك»^(٢)، ويقول له: «فاختر لنفسك إما الدخول إلى خراسان سريعاً، وإما الخروج عن الروم والعراق جميعاً»^(٣).

ومما لا شك فيه أنّ مثل هذا النصر المؤزر، وما تبعه من السياسة التي انتهجها الناصر محمد في إرهاب أعداء دولته الطامعين فيها قد أديا - كما سبق أن أشرنا - إلى استتباب الأمور للسلطان المملوكي، وهذا بدوره قد أدى إلى إزاحة

(١) كنز الدرر: ١٢١/٩.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) السابق نفسه: ١٢٢/٩.

كثير من الهموم والآلام النفسية التى كانت تثن من ضغطها الشديد كل القوى الفاعلة فى المجتمع بصفة عامة، والمبدعون بصفة خاصة، ولهذا لم يكن غريباً ولا عجباً أن يخلد الكتاب والشعراء هذا النصر الخالد فى أعمالهم، وإبداعاتهم. يقول شهاب الدين النويرى: «وقد ذكر الناس هذه الغزوة نظماً ونثراً، ووقفتُ مما عُمِلَ فيها على أشياء كثيرة»^(١)، ويقول صاحب كنز الدرر: «ونطقت بعد ذلك ألسنة أهل الفضل من الأكابر الذين لأقدامهم صيغت رءوس المنابر»^(٢).

ومما قيل فى هذه المعركة وكُتِبَ من قصائد ورسائل كتاب علاء الدين بن عبد الظاهر^(٣) الذى سماه «الروض الزاهر فى غزوة الملك الناصر» وقد أورده بتمامه شهاب الدين النويرى فى نهاية الأرب^(٤) وقال عنه: «ولما صنف المولى علاء الدين هذه الغزاة، وعُرِضَتْ على المسامع الشريفة السلطانية شمله الإنعام والتشريف السلطاني، ووفّرَ حظُّه من ذلك، وقد سمعتُ هذه الغزوة من لفظه، ونقلتها من حفظه، وقد أتى فيما أورده بالواقعة المشاهدة، ووفّى بقوله: إن الغائب إذا وقف على خبره يكون كمن شاهده»^(٥).

ولم تحتفظ سجلات التاريخ بشيء مما كُتِبَ عن هذه الواقعة نثراً سوى هذا

(١) نهاية الأرب: ٣٢ / ٣٣.

(٢) كنز الدرر ٩ / ٨٩.

(٣) هو علاء الدين على بن محمد بن عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان، ولد عام ٦٧٦هـ، وتوفى عام ٧١٧هـ كان من كبار كتاب الإنشاء بالدولة المملوكية الأولى بمصر والشام.

راجع ترجمته فى أعيان العصر ٣ / ٤٨٧ وما بعدها.

(٤) ينظر: نهاية الأرب: ٣٢ / ٣٣ - ٥٠.

(٥) السابق نفسه ٣٢ / ٥٠.

الكتاب، وقد اعتذر شهاب الدين النويري عن إيراد ما سواه بقوله «وقد وقفت أيضاً على جملة مما صنفه الفضلاء في خبر هذه الغزاة، وهذا الذي أوردته أتمها، وأكملها، وأكثرها استيعاباً للواقعة من ابتدائها إلى انتهائها، فلذلك اقتصرت على إيرادها دون ما سواه»^(١).

أما ما كُتِبَ عن هذه المعركة شعراً فقد احتفل المؤرخون به، وأوردوا منه نصوصاً كثيرة بعضها عبارة عن قصائد كاملة، وبعضها الآخر عبارة عن أجزاء من قصائد، أو أبيات مفردة استجادوها من بعض القصائد فدوّنوها دون غيرها من الأبيات.

ويهمنا - هنا - بطبيعة الحال أن نشير إلى ما احتفظوا به من النصوص الكاملة، ومن ذلك قصيدة شرف الدين بن الوحيد^(٢) الرائية التي مطلعها^(٣):-

لقد تَمَّتْ النُّعْمَى وأَوْضَحَتْ البُشْرَى

وقد أَعْبَقَ الفَتْحُ المَبِينُ لَنَا نَشْرًا

ويبلغ عدد أبياتها ثلاثة عشر بيتاً.

(١) السابق نفسه ٣٢ / ٥٠. وفي عبارة النويري خَلَّلْ؛ إذ الصواب أن يقول: «فلذلك اقتصرت على إيرادها دون ما سواه».

(٢) هو شرف الدين محمد بن شريف بن يوسف المعروف بشرف الدين بن الوحيد الزُّرْعِي، ولد بدمشق عام ٦٤٧هـ، وتوفي بالقاهرة عام ٧١١هـ. راجع ترجمته في أعيان العصر ٤ / ٤٦٦ وما بعدها.

(٣) أورد القصيدة كُلُّ من: أبو بكر الدواداري في كنز الدرر ٩ / ٨٩ - ٩٠، ومأمون فريزجرار في «الغزو المغولي أحداث وأشعار» نقلاً عن كنز الدرر.

وقصيدة شمس الدين الطيّبي^(١) الفائية التي مطلعها^(٢):

بَرَزْتُ الصَّوَارِمَ لِلأَبْصَارِ يَحْتَطِفُ

وَالنَّقْعُ يَحْكِي سَحَابًا بِالدِّمَا يَكِفُ

وقد بلغ عدد أبياتها خمسة وتسعين بيتاً.

وقصيدة محمد البراز المنبجي^(٣) التي مطلعها^(٤):

وَإِنِّي عَلَى قَدَرٍ مَا يَخْتَارُهُ الْقَدَرُ وَجَاءَ عَمَّا جَنَاهُ الدَّهْرُ مُعْتَذِرُ

وعدد أبياتها أربعون بيتاً.

وتأتى رائية جمال الدين التبريزي التي خضت من أجلها في هذا الحديث في إطار

الاحتفاء بهذا النصر وقد بلغ عدد أبياتها مائة وسبعة عشر بيتاً^(٥)، وقد اخترتها دون

(١) هو شمس الدين أحمد بن يوسف بن يعقوب المعروف بشمس الدين الطيّبي، ولد سنة ٦٤٩هـ وتوفي عام ٧١٧هـ. راجع ترجمته في أعيان العصر ١ / ٤٣٧ وما بعدها.

(٢) أورد بعض أبيات هذه القصيدة كلٌّ من: ابن حبيب في درة الأسلاك في دولة الأتراك ١ / ٢٤٧، والصفدي في أعيان العصر ٥ / ٨٧ وما بعدها، ومأمون فريزجرار في «الغزو المغولي أحداث وأشعار» نقلاً عنهما، وقد وردت بتمامها في مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري، ينظر مسالك الأبصار ١٦ / ٢٨٨ - ٢٩٥ منشورات المجمع الثقافي بأبي ظبي بتحقيق الدكتور محمد إبراهيم حور، وعن هذا المصدر أوردتها الدكتور تدمري بآخر تحقيق كتاب الروض الزاهر.

(٣) هو بدر الدين محمد بن عمر بن أحمد بن المثنى المنبجي الشافعي، ولد بمنبج عام ٦٥٠هـ وتوفي بمصر عام ٧٢٣هـ. راجع ترجمته في أعيان العصر ٤ / ٦٧٩.

(٤) أورد هذا النص أبو بكر الدواداري في كنز الدرر ٩ / ٩١ وما بعدها، ونقله عنه مأمون فريزجرار في «الغزو المغولي أحداث وأشعار» صفحة ١٥٩.

(٥) أورد هذا النص كلٌّ من: أبو بكر الدواداري في كنز الدرر ٩ / ٩٣ وما بعدها، وشهاب =

غيرها مما أشرتُ إليه من نصوص، وذلك لمجموعة من الأسباب هي:-

أولاً: أن هذه القصيدة هي أطول هذه القصائد من حيث عدد الأبيات.

ثانياً: أنها النص الشعري الوحيد الذى أورده شهاب الدين النويرى فى نهاية الأرب بعد انتهائه من ذكر رسالة الروض الزاهر لعلاء الدين بن عبد الظاهر.

ثالثاً: أنه ينطبق عليها ما أشار إليه شهاب الدين النويرى عند حديثه عن رسالة علاء الدين بن عبد الظاهر من أن من قرأها كأنه قد عاين الواقعة وشاهدها، وربما كان هذا هو السبب الرئيسى الذى من أجله أوردها النويرى فى كتابه مكتفياً بها، ومعرضاً فى الوقت نفسه عن إيراد غيرها من النصوص.

رابعاً: ما لاحظته من أن هذه القصيدة تتميز عن غيرها مما أشرنا إليه من نصوص بينائها الذى يشبه إلى حدٍّ كبير بناء الرسالة من حيث إن لها مقدمة، وموضوعاً، وخاتمة، ومن حيث إن غرضها الرئيسى قد صيغت عناصره الجزئية بترتيب منطقى وعقلانى، وكثيراً ما كان الشاعر ينتقل إلى حقل السرد الأدبى ليحكى أحداث الواقعة.

خامساً: ما لاحظته - أيضاً - من أن هذا النص يتميز عن غيره من النصوص التى قيلت فى هذه المناسبة بسمات فنية كثيرة لعل من أهمها وفرة النغم، وتنوع الأساليب التعبيرية، وكثافة الصور الشعرية، والتناص الدينى والشعري، إذ كان الشاعر كثيرًا ما يتناس مع العديد من النصوص القرآنية، والحديثية، والأدبية، على ما سأبين فيما بعد.

= الدين النويرى فى نهاية الأرب ٣٢/ ٥١ وما بعدها، ومأمون فريزجرار فى «الغزو المغولى أحداث وأشعار» صفحة ١٧٣ وما بعدها.

الفصل الثالث

الرأية بين الانسجام واللحن

أثنى على هذا النص العلامة ابن حجر العسقلاني إذ يقول - في ثنايا ترجمته
للشاعر- «ونظم في وقعة التتار بشقحب قصيدة أولها: «الله أكبر جاء النصر
والظفر»، وهي منسجمة^(١)».

ويبدو أن صفة الانسجام كانت من صفات شعر جمال الدين التبريزي
ونثره، وقد لاحظها كل من ترجعوا له، وعبروا عنها بالتعبير ذاته «منسجم»، أو
بألفاظ أخرى تدل عليه من مثل قول الصفدي «يَشْعُرُ مِثْلَ الصَّبَا إِذَا هَبَّتْ،
والقطر إِذَا نَبَّتْ، وينثر الدر من فيه نثرًا، ويكتب الرقعة كأنَّ صغرى وكبرى^(٢)،
لم تخرج تبريز مثل كلمة الإبريز»^(٣).

ونقل ابن حجر عن الذهبي قوله «له شعر رائق، ومحاسن كثيرة^(٤)»، ونقل
ابن شاعر الكتبي عن الصلاح الصفدي قوله: «وكان فصيح العبارة،...، عذب
الكلام، ينظم نظمًا عذبًا منسجمًا^(٥)» وهذا الذي رواه ابن شاعر عن الصلاح
الصفدي قاله الأخير في الوافي بالوفيات هكذا: «وكان فصيح العبارة،...، عذب
الكلام، ينظم نظمًا عذبًا منسجمًا، فيه بعض شيء من اللحن الخفي جدًا^(٦)».

(١) الدرر الكامنة: ٣ / ٨ - ٩.

(٢) يريد الصفدي أن يشير إلى أن جمال الدين التبريزي يكتب الورقة أو الصفحة بخط جيّد
أنيق، ولغة رشيقة دقيقة، وفي كلامه التلميح أو الإشارة، وذلك إذ يشير أو يُلمح إلى
وصف أبي نواس للخمر في قوله:

كأنَّ صغرى وكبرى من فواقعها - حصباء درُّ على أرضٍ من الذَّهَبِ

(٣) أعيان العصر: ٣ / ١٢٤.

(٤) الدرر الكامنة: ٣ / ٨.

(٥) فوات الوفيات: ٢ / ٣٦٨.

(٦) الوافي بالوفيات: ١٩ / ٥٦.

وأشار الصفدى أيضاً في غضون ترجمته لشاعر في أعيان العصر، وفي الوافى بالوفيات إلى أنه: «عمل مجلدة في الخطب وسمها بتحفة الألباء،... وفي هذه الخطب مواضع خارجة عن الصواب من اللحن الخفى^(١)».

وما أشار إليه الصفدى من وقوع جمال الدين التبريزى في اللحن له ما يؤكد في هذا النص الذى نتعرض له بالدرس، ففي البيت الرابع والثمانين من أبيات القصيدة وقع الشاعر في الإقواء الذى هو عيب نحوى من عيوب القافية^(٢) وهو «أن يختلف إعراب القوافى فتكون قافية مرفوعة مثلاً، وأخرى مخفوضة^(٣)».

إن التبريزى يتخلص من الحديث عن دمشق إلى مديح الخليفة أبى الربيع سليمان، والسلطان الناصر محمد فيقول:

٨٣- بالله عَدَوِي عَلَى مَنْ رَامَهَا بِأَذَى

وَبِالْخَلِيفَةِ وَالسُّلْطَانِ أَنْتَصِرُ

٨٤- هَمَّا مَلَاذُكُمْ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ

بِالرُّوحِ أَفْذِيهَا وَالسَّمْعِ وَالْبَصْرِ

ففى البيت الثانى، وفي الشطرة الثانية منه قد عطف السمع على الروح، ولما كانت الروح مجرورة بالباء كانت السمع هى الأخرى مجرورة، ثم عطف على هذا

(١) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٢) القافية تاج الإيقاع الشعرى: أ. د. أحمد كشك ص ١٠٦ وما بعدها.

(٣) نقد الشعر: لقدامة بن جعفر بتحقيق وتعليق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى

ص ١٨١.

المجرور بالعطف كلمة أخرى هي كلمة «البصر»، ومن هنا وجب أن تكون مجرورة هي الأخرى في صنعة النحو، ولما كانت لفظة البصر هي اللفظة التي تحتوى على حرف الروى الذى تنتسب إليه القصيدة من أولها إلى آخرها، وهو الراء، ولما كانت هذه الراء مضمومة من أول النص إلى آخره فإن كسرهما - ها هنا- يُعَدُّ عيباً نحوياً من عيوب القافية، ولاشك أنه من اللحن الخفى الذى أشار إليه الصفدى؛ لأن انشغال المبدع بسلامة الإيقاع الموسيقى للبيت قد صرفه عن الالتفات إلى ما وقع فيه من اللحن النحوى.

ولعل من اللحن الخفى في هذا النص - أيضاً- ما وقع فيه الشاعر من الضرائر؛ إذ إن الضرورة «عند جمهور العلماء العرب عبارة عن مخالفة المؤلف من القواعد في الشعر سواء أُلجئ الشاعر إلى ذلك بالوزن أو بالقافية أم لم يُلجأ»^(١). . . ومخالفة المؤلف من القواعد خطأً وغلطاً على حد قول ابن فارس الذى يرى أن الشعراء «يخطئون كما يخطئ الناس، ويغلطون كما يغلطون»^(٢)، وأنه «لا معنى لقول من يقول: إن للشاعر عند الضرورة أن يأتى في شعره بما لا يجوز»^(٣).

وفى هذا النص تتعدد الأمثلة الدالة على وقوع الشاعر في الضرائر، وهى في تعددها تشمل كل أنواع الضرورة؛ إذ كان منها ما يتعلق بالضرائر الصرفية، كما كان منها ما يتعلق بالضرائر النحوية، فمن الأمثلة الدالة على وقوع الشاعر في

(١) الصواب والخطأ في اللغة، للدكتور رمضان عبد التواب، مقال في مقدمة تحقيقه كتاب ذم الخطأ في الشعر لابن فارس، يراجع الكتاب المذكور: ص ٦.

(٢) ذم الخطأ في الشعر لابن فارس تحقيق الدكتور رمضان عبد التواب: ص ٢٣.

(٣) الصحاحي في فقه اللغة العربية، وسنن العرب في كلامها لابن فارس: تحقيق السيد أحمد صقر ص ٤٦٨.

بعض الضرائر الصرفية قوله في البيت التاسع عشر واصفاً احتدام المعركة:

١٩- واجْجُوا غَيْرَ وَالتَّائِرُ زَاجِفَةٌ

مِثْلَ الْجَرَادِ عَلَى الدُّنْيَا قَدْ انْتَشَرُوا

وقوله في البيت الثامن والسبعين:

٧٨- وَلَا تَخَافُوا مِنَ التَّائِرِ مَجْلَبَةٌ

مِنْ بَعْدِ مَا ارْتَفَعَ التَّدْلِيسُ وَالْغَرُّ

وموضع الاستشهاد في هذين البيتين أن الشاعر قد أشبع فتحة التاء الأولى من لفظة التائر فيهما، حتى صارت ألفاً، وربما كانت غايته من ذلك أن يحافظ على سلامة التفعيلة الثالثة من تفعيلات البيت - وهي مستفعلن - من الخبن، إذ إن البيت من البسيط، والشائع في مستفعلن الثانية من كل شطر في حشوه سلامتها^(١).

على أننا نحب أن نشير إلى أنه لم يكن بحاجة إلى المحافظة على سلامة هذه التفعيلة؛ لأن وزن البيت يستقيم بدون هذه المحافظة، حيث ورد خبن مستفعلن الثانية من كل شطرة في حشو البسيط التام على قلة في نصوص الجاهليين^(٢).

وفي البيت السابع والعشرين من النص يتحدث التبريزي عن لجوء التائر إلى الاحتماء بشماريخ الجبال هرباً من سيوف المماليك فيقول:

٢٧- لَاذُوا بِشَمِّ شِمَارِيخِ الْجِبَالِ فَمَا

حَمَتُهُمْ قَلِيلٌ مِنْهَا وَلَا مُغَرُّ

(١) موسوعة موسيقى الشعر عبر العصور والفنون للدكتور عبد العزيز نبوي ١ / ١١٤.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

وموضع الاستشهاد في هذا البيت أن الشاعر قد جمع الاسم على غير صيغة جمعه في قوله «مغر»، ذلك أن الشاعر في هذا البيت يشير إلى أن التتار لما رأوا الجيش المملوكي قد أحاط بهم، وأن مآلهم إلى القتل أو الأسر لاذوا بالجبال فمنهم من صعد إلى قممها، ومنهم من دخل كهوفها ومغاراتها، ومع هذا لم تحمهم الكهوف والقمم، ومن هنا يتبين أن الشاعر قد استخدم «مغر» على أنها جمع لـ «مغارة»، وهذا خطأ لأن لفظة «مغارة» تجمع على مغارات، وقد قال ابن منظور في لسان العرب «المغار والمغارة كالغار، وفي التنزيل العزيز: لو يجدون ملجأً أو مغاراتٍ أو مُدْخَلًا..»^(١).

ومن الأمثلة الدالة على وقوع الشاعر في بعض الضرائر النحوية قوله في البيت الحادي والأربعين واصفًا ما آل إليه قتلى التتار من أنهم صاروا طعامًا لوحوش البرية:

٤١- لم يُقْبَرُْوا فِي نَوَاسِيٍّ وَلَا جُدُثٍ

وَأَنَّهَا فِي بَطُونِ الْوَحْشِ قَدْ قُيرُوا

وموضع الاستشهاد في هذا البيت أن الشاعر قد صرف الممنوع من الصرف في قوله «نواويس» بالتنوين، وذلك أن النحاة قد قرروا أن كل جمع بعد ألف جمعه حرفان صحيحان أو ثلاثة أحرف أوسطها ساكن منع من الصرف، أى منع من التنوين^(٢)، ولفظة نواويس جمع ناووس، قال ابن منظور «والناووس: مقابر

(١) اللسان: ٥ / ٣٣١٣.

(٢) اللغة والكلام أبحاث في التداخل والتقريب، للدكتور أحمد كشك، ص ٥٧. نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ٩٥.

النصارى، إن كان عربياً فهو فاعولٌ منه^(١)، يريد الشاعر أن يقول إن قتلاهم لم يُدفنوا فيما اعتاد أن يدفن النصارى فيه موتاهم من النواويس، كما أنهم لم يدفنوا في قبور، وربما كان ذلك من شدة كثرتهم، وعدم التفات ذويهم إلى ما يجب من حقوقهم؛ لانشغال من نجا من الموت في هذه المعركة منهم بنفسه، وكان من جراء ذلك أن صار القتلى طعاماً للوحوش في البرية.

على أن هذا الذى لجأ إليه التبريزى من صرف هذه اللفظة «نواويس» إنما كان ليحافظ على سلامة «مستفعِلن» الثانية من الشطرة الأولى من البيت كى لا يدخلها الطى.

وفى البيت الثامن عشر من أبيات النص صرف الشاعر لفظه «صوالج» التى لا تنصرف، وذلك حيث يقول واصفاً الملحمة الدائرة بين المهاليك والترتين:

١٨ - لها السَّنَابُكُ فى المَيْدَانِ قَدْ حُيِّثَ

صَوَالِجًا وَلَهَا رُوسُ الْعِدَا أَكْرُ

لأنه بغير تنوينها ينكسر وزن البيت؛ لأن مستفعِلن حيثنذ سيكون قد دخلها الشكل، الذى هو اجتماع الحُبن والكف، وهو نوع من أنواع الزحاف المزدوج لا يدخل إلا على تفعيلتين أو لهما فاعلاتن، والأخرى مستفع لن التى تتكون من وتد مفروق بين سببين خفيفين، ولا يدخل أبداً تفعيلة مستفعِلن التى تتكون من سببين خفيفين يليهما وتد مجموع التى هى إحدى التفعيلتين اللتين تتكون منهما التشكيلات المختلفة لبحر البسيط^(٢).

(١) اللسان ٦ / ٤٥٧٥.

(٢) يراجع فى هذا: أوزان الشعر العربى وقوافيه دراسة وتحليل للدكتور إبراهيم الإدكاوى =

وفى هذا البيت نفسه وقع الشاعر فى ضرورة أخرى لكنها من الضرائر الصرفية، وذلك حين حذف الهمزة من كلمة «رءوس»، وإذا كان حذف الهمزة للتخفيف يميزه النحويون واللغويون العرب نظراً «لتباعدها من الحروف، وثقل مخرجها، وأنها نبرة فى الصدر»^(١)، فإن معنى هذا بمفهوم المخالفة أن الأصل فى نطقها هو تحقيقها، شأنها فى ذلك شأن بقية الحروف، ومن ثمَّ فإن حذفها فى سعة الكلام يعدُّ لحناً، ثم إن حذفها فى الشعر يعدُّ ضرورة، وهو - هاهنا - فى هذا البيت ضرورة، مستحسنة للمحافظة على سلامة البيئة الإيقاعية لتفعيلة مستعلن الثانية من الشطرة الثانية من البيت.

ونستطيع أن نزيد هذا الأمر ايضاً بتقطيع الشطرة التى وقعت فيها هاتان الضرورتان مرتين: أولاهما بعد منع «صوالج» من الصرف، وتحقيق همزة «رءوس»، وثانيتهما مع صرف لفظة «صوالج»، وتخفيف همزة «رءوس» كما بالنص، ففى الحالة الأولى تكون التفعيلات هكذا:

صوالج	ولها	رءوسلعدا	أكرو
// ٥ //	٥ ///	٥ // ٥ / ٥ //	٥ ///

= ص ٣٣، الطبعة الأولى ١٩٩٦، وقد حدّد - رحمه الله - البحور التى تقبل تفعيلاتها الشكل فقال «ويقع فى المديد والرمل، وفى الخفيف والمجثّ».

(١) المقتضب لأبى العباس محمد بن يزيد المبرد، تحقيق الأستاذ محمد عبد الخالق عزيمة، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٩٤، ١ / ٢٩٢، ويراجع الضرورة الشعرية فى النحو العربى، للدكتور محمد حماسة عبد اللطيف، مكتبة دار العلوم. القاهرة ٧٩، ص ٢٤٢ وما بعدها.

تفعيلة مشكولة دخلها الخبن، فعلن أدى تحقيق الهمزة إلى كسر فعلن
وهو حذف الثانى الساكن، الوزن حين زادت حركة فى
والكف وهو حذف السابع أول مستفعلن فتكونت
الساكن وهو ممتنع فى هذه تفعيلة تتركب من وتدين
التفعيلة. مجموعين بينهما سبب خفيف
ولا يوجد لها نظير فى

التفعيلات الخليلية.

وفى الحالة الثانية تكون التفعيلات هكذا:

صوالجن	ولها	روسلعدا	أكرو
٥ // ٥ //	٥ ///	٥ // ٥ / ٥ /	٥ ///
متفعلن	فعلن	مستفعلن	فعلن

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن: إذا كان هذا النص يكتظ بما حاولنا جلاءه
مما ألمح إليه الصفدى من وقوع جمال الدين التبريزى فى اللحن الخفى جدًا إذا
نظم أو نثر، فكيف جاز لابن حجر العسقلانى أن يصفه بالانسجام؟ هل كان
العلامة ابن حجر المحدث المؤرخ لا يدرى شيئًا عن العروض والقافية؟، هذا
مستبعد لما نعلم من أنه - إلى جوار كونه شاعرًا مقلقًا - كانت له قدم راسخة فى
النقد الأدبى بصفة عامة، وفى النقد العروضى بصفة خاصة، والدليل على ذلك
أنه ألف كتابًا اسمه «قذى العين من نظم غراب البين»^(١) أداره على نقد ألفية بدر

(١) كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون لحاجى خليفة، الجزء الخامس الخاص بأسماء
المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون لإسماعيل باشا البغدادى ص ١٣٠.

الدين العيني التى نظمها فى سيرة الملك المؤيد شيخ المحمودى نقدًا عروضيًا، وأورد محقق ديوانه ضمن ما أورد من مؤلفاته فى اللغة «تحرير مقدمة فى العروض^(١)».

ثم كيف جاز للصفدى قبله أن يجمع فى وصفه نظم الرجل بين العذوبة والانسجام من ناحية، واللحن الخفى جدًّا من ناحية ثانية؟

أليس اللحن - خفى أو ظهر - خرقًا للقاعدة، وخروجًا على الانسجام؟؛ لابد أن الانسجام - إذن - متعلق الأسباب فى اصطلاحهم بمعينيه اللغوى والبديعى، ف: «انسجم الماء والدمع فهو منسجم إذا انسجم أى انصبَّ^(٢)».

ولا شك أن صاحب اللسان يقصد بقوله: «أى انصبَّ» معنى التحدر، فقد قال فى مادة (صبب) «والماء ينصبُّ من الجبل، ويتصبَّب من الجبل أى يتحدر^(٣)»، وعلى هذا فهو يريد أن يشير إلى أنه ينزل من أعلى إلى أسفل فى سرعة وتدفق، حيث لا يمنعه مانع، ولا يعوق سبيله عائق، وهذا المعنى اللغوى للانسجام يتطابق معه كل المطابقة معناه الاصطلاحى عند أصحاب البديعيات، فها هو ذا صفى الدين الحلى يقول: «الانسجام هو أن يكون الكلام مُتَحَدِّرًا كتحدر الماء المنسجم لسهولة سبكه، وعذوبة ألفاظه، وعدم تكلفه، ليكون له فى القلوب موقع، وفى النفوس تأثير مع، خُلُوّه من البديع^(٤)».

(١) ديوان ابن حجر العسقلانى، تحقيق الدكتور صبحى رشاد عبد الكريم، نشر دار الصحابة للتراث بطنطا، الطبعة الأولى عام ١٩٩٠م - مقدمة التحقيق: ص ١٥.

(٢) لسان: ٣ / ١٩٤٧.

(٣) لسان العرب: ٤ / ٢٣٨٥.

(٤) شرح الكافية البديعية فى علوم البلاغة ومحاسن البديع لصفى الدين الحلى، تحقيق =

ويقول ابن حجة الحموى: «المراد من الانسجام أن يأتي لخلوّه من العقادة كانسجام الماء في انحداره، ويكاد لسهولة تركيبه، وعذوبة ألفاظه أن يسيل رقه...، وعلى هذا أجمع علماء البديع في حدّ هذا النوع فإنهم قرروا أن يكون بعيداً عن التصنع، خالياً من الأنواع البديعية إلا أن يأتي في ضمن السهولة من غير قصد^(١)». ومن هذين النصين اللذين سقناهما من شرح الكافية البديعية لصفى الدين الحلّي، ومن خزانة الأدب لابن حجة الحموى يتضح أن بديع القرن الثامن الهجري يشترطون في انسجام النص عدداً من الشروط من أهمها أن يكون خالياً من عيوب فصاحة اللفظة المفردة، وأن يكون خالياً من التعقيد بمستوياته اللفظي والمعنوي، وأن يكون خالياً من الفنون البديعية إلا أن تأتي هذه الفنون دون قصْدٍ أو تعمُّدٍ من الشاعر.

واشترطهم خلوّ النص من هذه الأمور جميعها حتى يكون منسجماً معناه أنهم يزيلون جميع أنواع العوائق التي من الممكن أن تحول دون تدفقه وتحذّره. ومعنى هذا أن لا علاقة للانسجام في الشعر - حسب تصورهم - بمخالفة القواعد النحوية إلا إذا أدّت هذه المخالفة إلى وقوع الشاعر فيما يعيب فصاحة ألفاظه المفردة، أو فيما يؤدي إلى تعقيد تراكيبه لفظياً أو معنوياً.

ولقد خلّت رائية التبريزي - على الرغم من وقوعه في بعض الضرائر - من العقادة في ألفاظه وتراكيبها، وما وجدناه فيها من الفنون البديعية جاء عفواً دون قصْدٍ أو تصنع، ومن ثمّ فقد توافرت فيها شروط الانسجام، وصحّ وصف ابن حجر لها به.

= الدكتور: نسيب نشاوى مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ١٩٨٣ م. ص ٢٦٤.

(١) خزانة الأدب: لابن حجة الحموى ١ / ٤١٧.

الفصل الرابع

التنصص والدلالة في رائية التبريزي

يأتى الحديث عن التناص الدينى والأدبى فى هذا السياق من تحليل النص ليحقق - فيما أتصور - فائدتين على قدر كبير من الأهمية أولاهما: الكشف عن ثقافة المبدع فى تنوعها، والثانية: جلاء نقاط التماس التى وقعت فى هذا النص مع ما سبق من ميراث العربية الدينى، والثقافى، والأدبى.

والمدقق فى قراءة هذا النص يلحظ أن الشاعر كثيرًا ما يتماس مع آيات الكتاب العزيز، وأحاديث النبى ﷺ، وقصائد شعراء العربية الكبار ولاسيما فى العصر الجاهلي، والعصرين الأموى والعباسى.

ولن يقف دورى فى هذا الجزء من البحث على رصدها وحسب - على ما فى رصدها من دلالة على الخلفية الثقافية للمبدع كما سبق أن أشرت - وإنما سأحاول تَجْلِيَّةَ دورها فى تعميقه المعانى والأفكار التى أراد الشاعر بثها فى نفوس مستمعيه، وإمادة اللثام عن القيم الجمالية التى خلعتها على القصيدة، باعتبار هذه النصوص التى تماس معها الشاعر قطعًا من الموزايك على حد تعبير جوليا كريستيفا^(١).



(١) التناصية، لليون سومفيل، ترجمة وائل بركات، مجلة علامات المجلد السادس، الجزء الواحد والعشرون، جدة، سبتمبر ١٩٩٦، ص ٢٣٦.

المبحث الأول التناسع مع القرآن الكريم

وليس من المستغرب أن تكون أكثر نقاط التماس في هذا النص مع القرآن الكريم، وذلك لما نعلم من أن الشاعر كان يتبوأ عددًا من الوظائف الدينية الكبرى في عصر الدولة المملوكية الأولى، وعلى رأس هذه الوظائف «وظيفة الخطابة»، فقد أشار من ترجموا له إلى أنه ناب عن ابن جماعة في الخطابة^(١)، والخطيب بحاجة إلى حفظ نصوص الكتاب العزيز ليستشهد بها في خطابه، وليقتبس منها ما يُدعّم به آراءه التي يذيعها في الناس، وقد ذكر كل من ترجموا للرجل أنه حفظ القرآن الكريم وجوّده، ونقلوا عنه قوله «وقرأتُ القرآن على الزواوي»^(٢)، وقوله «وجوّذتُ الختمة على الزواوي»^(٣).

كما تولى جمال الدين التبريزي وظيفة القضاء، وأهّله لهذه الوظيفة أنه كان فقيها شافعيًا^(٤)، حيث نصت كتب التراجم على أنه درس الفقه على كبار فقهاء عصره مثل تاج الدين الفزاري، ونجم الدين الموغانى، وابن جماعة^(٥) ثم «تولى القضاء بسلمية، وعجلون، وقضاء القضاة بصفد»^(٦) من جهة جمال الزرعى^(٧)،

(١) الدرر الكامنة: ٨ / ٣.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) أعيان العصر، وأعوان النصر: ١٢٦ / ٣.

(٤) السابق نفسه: ص ١٢٥.

(٥) الدرر الكامنة: ٨ / ٣.

(٦) أعيان العصر: ١٢٤ / ٣.

(٧) السابق نفسه: ١٢٥ / ٣.

وهذه البلدان الثلاثة من بلدان الشام العريقة، ثم توجه إلى مصر مع ابن جماعة الذى ولاه قضاء دمياط، وظل بهذه الوظيفة إلى أن وافته المنية سنة أربعين وسبعائة^(١).

على أن القرآن الكريم - إلى جوار أنه المصدر الأول من مصادر التشريع الإسلامى التى يحتاج الفقيه أو القاضى إلى معرفتها، وفهمها، وحفظ نصوصها - يمثل محور ارتكاز فى ثقافة المبدع المسلم بصفة عامة، فهو يستدعيه فى كثير من السياقات التعبيرية التى ينشئها تعبيرًا عن أحاسيسه ونواذعه، وتبيانًا لآرائه، وإفصاحًا عن مواقفه مما يدور حوله من أحداث.

وهناك جانب آخر تجدر الإشارة إليه، وهو ما بين الموضوع الكلى العام الذى يدور حوله هذا النص، وبعض آيات القرآن الكريم وسوره من علاقة أو رابطة، ذلك أن الموضوع الكلى العام للنص هو الإشادة بنصر الله تعالى للمصريين على التتريين، ووصف موقعة مرج الصُفَر، وآيات القرآن الكريم وسوره ممتلئة بالحديث عن كثير من المعارك الحربية التى وقعت بين جند الحق وجند الباطل لا فى عصر الرسالة الخاتمة وحدها، وإنما فى عصر الرسالة المحمدية، وما سبقه من عصور.

ولقد ظلت هذه الآيات والسور - وما زالت - معينًا ثراءً يتوارد عليه الكتاب والشعراء، ويقتبسون منه ما يثرى نصوصهم، بالتعبيرات والصور إيماًا منهم بأن القرآن العظيم هو كتاب العربية الأعلى، وتاج بيانها الأسمى.

لهذه الأسباب جميعها أرجع كثرة نقاط التماس التى وردت فى هذا النص

(١) السابق نفسه: ٣ / ١٢٤، ١٢٥.

الشعري مع بعض مفردات القرآن الكريم وتراكيبه.

وأول المواضع التي برز فيها تأثير المعجم القرآني على لغة الشاعر هو قوله

في البيت التاسع متحدثاً عن الجنود المصريين في مواجهة جحافل التتار:

٩- كِنَانَةُ اللَّهِ مَضْرُجُنْدُهَا ثَبَّتَتْ لَا رَبَّ فِيهِ وَجُنْدُ اللَّهِ تَنْتَصِرُ

ففي هذا البيت لا تحظى العين ظاهرة استخدام التركيب القرآني ﴿لَا رَبَّ

فِيهِ﴾، وهو تركيبٌ تكرر عشر مرات في القرآن الكريم^(١)، وقد لاحظنا أن وروده

في سبع منها كان في سياق الحديث عن يوم القيامة وهي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ

جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَبَّ فِيهِ﴾^(٢) وقوله عزَّ شأنه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ

لَا رَبَّ فِيهِ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا

رَبَّ فِيهِ﴾^(٤)، وقوله عز وجل: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْمَعَ بَيْنَكُمْ إِلَى يَوْمِ

الْقِيَمَةِ لَا رَبَّ فِيهِ﴾^(٥)، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَبَّ فِيهِ﴾^(٦)،

(١) يراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، طبعه دار

الشعب، القاهرة، دون تاريخ، ص ٣٢٩، وقد أخرجت من دائرة الإحصاء المواضع التي

يكون فيها مجرور «في» ضمير الغائب الدال على المفردة المؤنثة كما في قوله تعالى «وأن

الساعة لا ريب فيها» سورة الكهف آية ٢١، ولقد تكرر هذا التركيب أربع مرات في سور

الكهف، والحج، وغافر، والجن، وكان الضمير في كل مرة يعود على الساعة.

(٢) سورة آل عمران: آية رقم ٩.

(٣) سورة آل عمران: آية رقم ٢٥.

(٤) سورة النساء: آية رقم ٨٧.

(٥) سورة الأنعام: آية رقم ١٢.

(٦) سورة الإسراء: آية رقم ٩٩.

وقوله تعالى: ﴿لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُخَيِّكُم ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾^(٢). كما لاحظنا أن وروده في ثلاثة المواضع المتبقية من المواضع العشرة، كان في سياق وصف القرآن العظيم وهو قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾^(٤) وقوله تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٥).

على أن الشاعر كان من الممكن سياقه التعبيري أن يستخدم كلمة أخرى من الكلمات التي يُظنُّ أنها مترادف كلمة «ريب» في معناها مثل كلمة «شك» على سبيل المثال، فيقول «لا شك فيه»، وهو تعبير إلى جوار مقاربتة في المعنى لتعبير «لا ريب فيه» موافق أيضاً لبنية البيت الإيقاعية فلماذا لم يفعل؟

ليس أمامنا هنا سوى افتراضٍ من افتراضين:

الأول: أن مفردات القرآن الكريم وتراكيبه التي غاصت عند الشاعر في اللاوعي كانت تستدعى بطريقة لا إدارية لتجد نفسها داخلية في غضون سياقاته التعبيرية.

الثاني: أن الشاعر قد عمد عمداً إلى هذا التعبير القرآني، وأثره دون غيره

(١) سورة الشورى: آية رقم ٧.

(٢) سورة الجاثية: آية رقم ٢٦.

(٣) سورة البقرة: آية رقم ٢.

(٤) سورة يونس: آية رقم ٣٧.

(٥) سورة السجدة: آية رقم ٢.

من التعبيرات الأخرى قصداً منه إلى تعميق المعنى الشعري لما يعلم أولاً من الفروق اللغوية الدقيقة بين الشك والريب، فلقد قال الفخر الرازي في تفسير معنى الريب: «الريب قريبٌ من الشك، وفيه زيادة، كأنه سوء ظن»^(١)، ثم لما يعلم الشاعر ثانياً من خصوصية التعبير القرآني، فحين يتحدث المولى -عز شأنه - عن يوم القيامة، أو عن القرآن الكريم ويصفه بأنه «لارب فيه» فمعنى ذلك أنه يريد «نفى كونه مظنة للريب بوجه من الوجوه»^(٢)، وأن يثبت أنه «لا شبهة في صحته»^(٣)، وأنه «بلغ من الوضوح إلى حيث لا ينبغي لمرتاب أن يرتاب فيه»^(٤).

ولأن الشاعر في موقف الزهو والفخر بما حققه الجنود المصريون من النصر، ولأنه - أيضاً - في موقف امتداح للخليفة أبي الريب سليمان، وللسلطان الناصر محمد بن قلاوون، فقد أراد أن ينتهج السبيل الذي يتطلبه هذان الموقفان من المبالغة والإغراق في نفى ما يريد أن ينفى من عرر النقائص الفاضحة، وفي إثبات ما يريد أن يثبت من غرر الخصائص الواضحة فعمد إلى هذا التركيب القرآني، وأدرجه في سياق نظمه، مستغلاً طاقاته وإجاءاته التعبيرية في نفى مظنه الريب عن استبسال الجنود المصريين في المعركة.

وفي البيت التاسع عشر يصف الشاعر زحف التتار فيقول:

(١) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير لفخر الدين الرازي. الناشر دار الغد العربي. الطبعة

الأولى، القاهرة ١٩٩٢م، ١ / ٣٧٨.

(٢) السابق نفسه: ١ / ٣٧٨.

(٣) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٤) السابق نفسه ١ / ٣٧٨-٣٧٩.

مِثْلَ الْجَرَادِ عَلَى الدُّنْيَا قَدْ انْتَشَرُوا

إن الشاعر في الشطرة الثانية من هذا البيت يتناص مع قوله تعالى في سورة القمر: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نَّكُرٍ ﴿٦٠﴾ خُشْعًا أَبْصَرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ ﴾^(١).

والقرآن الكريم في هاتين الآيتين يتوجه بالخطاب إلى النبي ﷺ قائلاً: فانصرف عن مشركى مكة يا محمد، فقد أقمت الحجة، ولسوف تبصرهم في يوم البعث والنشور وقد خرجوا من قبورهم أذلاء صاغرين، قاصدين أرض المحشر في فزع وذهول^(٢).

وتشبيه خروج الناس من أجداثهم - يوم البعث - بالجراد يدل على ملمحين هما: كثرة أعدادهم، وسرعة خروجهم مع الاضطراب والتموج والجلبة^(٣)، أما الكثرة فلأن جميع الخلائق من لدن آدم عليه السلام ستخرج من قبورها للجزاء والحساب، وأما السرعة فلأنهم حينئذ مأمورون مفطورون على تلبية النداء بالخروج، لا يستطيع أحد أن يتباطأ أو يتخلف لأنه لا يملك إرادة التباطؤ أو التخلف، وكأن القرآن الكريم يريد بهذا التشبيه أن يرسم للقارئ صورة لانسداد الآفاق على رحابتها أمام ناظريه بالبشر.

(١) سورة القمر: الآيتان ٦، ٧.

(٢) يراجع تفسير الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي طبعة دار الشعب: ص ٦٣٠٠.

(٣) تفسير الكشف للإمام الزمخشري: الطبعة الأولى بمطبعة مصطفى محمد صاحب

المكتبة التجارية الكبرى ١٣٥٤هـ، ج ٤، ص ٤٤.

ولا شك أن الشاعر قد أراد باستخدام هذا التشبيه القرآنى هذه المعانى جميعها، وكأن التبريزى يريد أن يقول: ما إن اشتعل فتيل الحرب حتى أقبل التتار من كل حذب وصوب، فى كثرة كاثرة، مع السرعة والجلبة، والاضطراب والتموج، قاصدين أرض المعركة، حتى ليخيل إليك أنهم قد تُنودى عليهم أن اخرجوا، وما هى إلا فترة وجيزة حتى امتلأ بهم الفضاء الرحب، وسُدَّت الآفاق أما الناظرين إليهم بما تتابع من حشودهم، ولم يعد الإنسان بمقدوره أن يفتح عينيه من كثرة ما يتصاعد من الغبار الناتج عن اصطكاك أقدام خيول الجحافل الزاحفة بالأرض.

وفى البيت الخامس والعشرين يتحدث الشاعر عما فعله المماليك بالترتين فيقول:

٢٥- أَصْلَوْهُمْ جَاحِمًا يَشْوَى الْوُجُوهَ وَقَدْ

حَمَى الْوَطِينُ وَنَارُ الْحَرْبِ تَسْتَبْعِرُ

والشاعر فى هذا البيت أراد أن يبين كيف استطاع الجيش المملوكى أن ينكل بالترتين، وأن يَصْبَّ جام غضبه عليهم، فجاءت ألفاظه وعباراته مؤدية هذا المعنى أداءً تاماً، ومحقة لوناً من ألوان التناص أو التماس مع بعض آيات الذكر الحكيم، وذلك حين تطالعنا فى صدر المصراع الأول من البيت جملة «أصلوهم جاحماً»، وهى تتكون من الفعل «أصلى»، وواو الجماعة التى هى فاعله، وهى عائدة على الجنود المصريين الذين خاضوا الحرب تحت قيادة المماليك، والضمير الدال على جماعة الغائبين «هم» العائد على التتار، وهو مفعول «أصلى»، و «جاحماً» التى تعنى شديداً، أو قاسياً، أو متلهباً متوقداً تلهب النار وتوقدُها، وهى صفة للمفعول الثانى المحذوف للفعل «أصلى»، وتقدير الكلام بعد تحيّل

ذكره «أصلوهم ضرباً، أو قتلاً جاحماً».

والفعل «أصلى» فعل ماضٍ ينتمى إلى الجذر المعجمي «صَلَّى»، والهمزة التي في أوله هي همزة التعدية، وهذا الفعل بمعنى «أذاق»، ولا يستخدم في العربية إلا في السياقات الدالة على الإهانة، والتعذيب بالإحراق قال تعالى: ﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾^(١)، وقال تعالى: ﴿فَسَوْفَ نُضَلِّهِ نَارًا﴾^(٢)، ولهذا كان ورود لفظة جاحم بعده من باب التلازم اللفظي.

وواضح أن الشاعر في استخدامه هذا التعبير «أصلوهم جاحماً» كان متأثراً بالعديد من الآيات القرآنية التي عبرت عن مآل المشركين والعصاة في الآخرة من مثل قوله تعالى: ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾^(٤)، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾^(٥).

ثم تأتي بعد ذلك جملة ﴿يَشْوَى الْوُجُوهَ﴾، وهي جملة في محل نصب، لأنها وقعت نعتاً ثانياً لمفعول «أصلى» الثاني المحذوف، وهي تركيب قرأني خالص ورد مرة واحدة في سورة الكهف وصفاً للهاء الذي يغاث به أهل الجحيم قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾^(٦).

(١) سورة النساء: آية رقم ١٠.

(٢) سورة النساء: آية رقم ٣٠.

(٣) سورة الواقعة: رقم ٩٤.

(٤) سورة الحاقة: آية ٣٠.

(٥) سورة المطففين: آية رقم ١٦.

(٦) سورة الكهف: آية رقم ٢٩.

وتقييد الموصوف «بهاء» بالصفة «يشوى الوجوه» في النص القرآني إنما كان للمبالغة في إظهار شدة لهيبه وغليانه، حتى يكون النفور منه أشد، والتقرز منه أكبر، وتقييد الموصوف المحذوف «ضرباً» بالصفة القرآنية «يشوى الوجوه» في البيت، إنما كان لزيادة بين درجته، وللمبالغة في إظهار شدته.

وفي البيت التاسع والعشرين يقول الشاعر:

٢٩- أَيْنَ الْمَفْرُوقِ قَدْ حَامَ الْحِمَامُ بِهِم

هيهات لا ملجأ يُرَجَى وَلَا وَرَرٌ^(١)

وهو في هذا البيت يتناص في ثلاثة مواضع منه مع مفردات القرآن الكريم وتراكيبه، وأول هذه المواضع ابتداء البيت بهذا الاستفهام «أين المفر وقد حام الحمام بهم» فهو مأخوذ من قول الله تعالى ﴿يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُوقُ﴾^(٢).

والآية الكريمة تصور حيرة الإنسان، واضطرابه، وتخبطه لحظة خروجه من قبره إلى أرض المحشر، ذلك أن البعث الذي كان يراه في الدنيا بعيداً أصبح حقيقة ماثلة أمام عينيه، وليس بمقدوره أن يفر من أرض التناد إلى لجأ أو معاذ يحميه من بأس الله تعالى، ومن حسابه، ومن سطوة عقابه، ومن هنا يسأل نفسه موبخاً إياها على ما وقع منها في دنياها من التكذيب والعناد قائلاً لها أين المفر^(٣).

والملاحظ أن جمال الدين التبريزي قد وُفِّق حين جعل سياق بيته الشعرى يقترب من روح السياق المعنوي للاستفهام القرآني، وذلك حين أردف جملة

(١) الوزر: الجبل المتيع، وكلٌ معقل، والملجأ، والمعصم. القاموس المحيط ٢ / ١٥٢.

(٢) سورة القيامة: آية رقم ١٠.

(٣) يراجع تفسير مفاتيح الغيب للفخر الرازي: ١٦ / ٢٥.

«أين المفر» بجملة حالية هي قوله «وقد حام الحمام بهم» فخرج السؤال بذلك عن معناه الحقيقي إلى معنى بلاغى هو الاستبعاد، ولقد استطاعت ألفاظ الجملة الحالية أن تلفت النظر بقوة إلى تأزم الموقف من خلال حرف التحقيق «قد»، والفعل «حام» بما يشير إليه زمنه من وقوع الحدث قبل بدء الإخبار به، وبما يشير إليه معناه من الدلالة على الالتفات والإحاطة، والحائم المرفرف هو الموت، وهو يرفرف على التترين المنهزمين الراجين الفرار، الطالبين سبيله، وكأن الشاعر يريد أن يقول إن الموت قد حاصرهم، وأتى إليهم من كل باب، ووقف أمام كل طريق ساداً في وجوههم سبل النجاة، ومن ثم ففرارهم من قبضته مستبعد.

ونجد في صدر المصراع الثانى نقطة أخرى من نقاط التماس مع مفردات المعجم القرآنى تتمثل في لفظة التباعد «هيهات» التى وردت في القرآن الكريم مرتين^(١) في آية واحدة هي قوله تعالى: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾^(٢).

والملاحظ أن الشاعر قد وفق حين استخدم هذه اللفظة في موضعها هذا من البيت عقب الاستفهام المجازى الذى أورده في صدر المصراع الأول، ومرد هذا التوفيق إلى أن التبريزى قد لاحظ - ببراعة - السياق الذى وردت فيه هذه اللفظة في آى الذكر الحكيم، حيث جاءت عقب استفهام إنكارى وجهه قوم عاد إلى المؤمنين من بنى جلدتهم بنبي الله هود عليه السلام، وبما جاء به من الدعوة إلى التوحيد والإيمان بالبعث^(٣)، قال تعالى: ﴿وَقَالَ آلَمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ص ٧٤٠.

(٢) سورة المؤمنون: آية رقم ٣٦.

(٣) تفسير الكشاف للإمام الزمخشري: ٤٧ / ٣.

وَكَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتَرَفْنَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٦﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَيْعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ تُحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿١﴾.

ولفظه «هيهات» في هذا السياق القرآنى تشى بدلالة مهمة، هى ثقة اللائمين بأنفسهم، وبصحة موقفهم الذى تدعمه -- من وجهة نظرهم -- الأدلة المادية المتمثلة فى فناء الأجساد وتحللها، وتحولها إلى تراب وعظام.

وهى فى السياق الشعرى تشى بثقة المرسل / الشاعر بنفسه، وبما أحرز المصريون من النصر، تلك الثقة التى تدعمها - أيضا - الأدلة المادية المتمثلة فيما سبق أن وصفه من تنكيل الجيش المملوكى بالترتين فى قوله «أَصْلَوْهُمْ جَاحِمًا يَشْوَى الْوُجُوهَ»، «وَأَخْرَقَتْهُمْ سِرَاعًا كُلُّ صَاعِقَةٍ مِنَ السُّيُوفِ»، و «لَاذُوا بِشَمِّ شَمَارِيخِ الْجِبَالِ فَمَا حَمَتُهُمْ»، «وَمَزَّقُوا سُرْدًا بَيْنَ الزَّحَامِ».

والنقطة الثالثة الأخيرة من نقاط التماس التى حدثت فى هذا البيت مع مفردات المعجم القرآنى وتراكيبه تكمن فى قول الشاعر «لَا مَلْجَأَ يُرْجَى وَلَا وَرَرَ» حيث يستوقفنا التعبير «لا وزر» لأنه يحاكى تعبيراً قرآنياً ورد فى سورة القيامة فى قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَرَرَ﴾^(٢).

ومما لا ريب فيه أن ثمة وجوها من المماثلة والمخالفة بين هذين التعبيرين.

أما المماثلة فيمكن أن تُلْتَمَسَ من ناحيتين:

(١) سورة المؤمنون: الآيات ٣٣ - ٣٦.

(٢) سورة القيامة: آية رقم ١١.

الأولى: ناحية الشكل / فكل من التعبيرين يتكون من لفظين أحدهما حرف وهو (لا)، والآخر اسم، وهو (وزر).

والأخرى: ناحية المعنى الذى أداه التعبير فى السياقين القرآنى والشعرى، وهو نفى الوسائل التى يمكن الاحتماء بها مما قد يصيب الإنسان من سوء المآل، فالقرآن الكريم يشير إلى أنه إذا قامت القيامة لا يستطيع الإنسان أن يجد «ما يلجأ إليه من حصن أو جبل أو غيرهما»^(١)، والشاعر يريد أن يقول إن التترين بعد أن حام الحمام بهم أصبحوا لا يجدون ملجأ ولا جبلاً منيعاً يتحصنون به.

أما وجه المخالفة بين التعبيرين فيمكن فى الوظيفة النحوية لـ (لا) فى كلٍّ منهما، فهى فى النص الشعرى نافية غير عاملة، وفى النص القرآنى نافية للجنس، ناصبة لاسمها، رافعة لخبرها.

وفى البيت السابع والثلاثين يقول جمال التبريزى فى وصف التترين الفارّين:

٣٧- لَمْ يَنْفِرُوا خِيفَةً مِنْ كُلِّ قَسْوَرَةٍ

وَقَرَّرَ جَمْعُهُمْ إِلَّا وَهُمْ حُرُرٌ

ولا شك أن النص المسيطر على الروح الشعرية فى البيت هو قوله تعالى فى سورة المدثر ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾^(٢).

والآيتان الكريمتان قد وردتا فى معرض الحديث عن وصف إعراض مشركى مكة عن سماع آيات القرآن الكريم، وتدبر ما فيها من التذكير والوعظ

(١) تفسير القرطبي: ص ٦٨٨٩.

(٢) سورة المدثر: الآيتان ٥٠، ٥١.

قال الزمخشري «شبههم في إعراضهم عن القرآن، واستماع الذكر والموعظة، وشرادهم عنه بحمر جدّت في نفارها مما أفزعها»^(١)، ثم بيّن القيمة الجمالية لهذا التشبيه القرآني بقوله «وفي تشبيههم بالحُمُر مدّة ظاهرة، وتهجين لحالهم بيّن... وشهادة عليهم بالبله، وقلة العقل، ولا ترى مثل نفار حمر الوحش واطرادها في العدو إذا رابها رائب»^(٢).

ولقد أراد الشاعر بما أحدث من تناص مع الآيتين الكريميتين: أن يخلع على التترين هذه الصفات التي خلعتها النص القرآني على مشركى مكة الذين أعرضوا عن سماع القرآن والذكر لأن ثمة وجوهاً من المشابهة بينهما - فيما أتصور - في موقفيهما من عدويهما يمكن أن نجملها فيما يأتى:

أولاً: أعرض مشركو مكة عن الإنصات لصوت العقل الذى دعاهم إليه عتبة بن ربيعة حين قال لهم: «يا معشر قريش أطيعونى، واجعلوها بى، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به»^(٣).

وأعرض التريون عن الإنصات لصوت العقل الذى دعاهم إليه الناصر محمد بن قلاوون قبل بدء المعركة حين طلب من الغازان محمود أن يعملوا سوياً على حل الأزمة بالطرق السلمية، والمفاوضات السياسية.

(١) الكشف: ١٦٢ / ٤.

(٢) السابق نفسه والصفحة نفسها.

(٣) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة للدكتور الشيخ محمد بن محمد أبو شهبه، طبعة دار القلم بدمشق، الطبعة الخامسة ١٩٩٩ م، ١ / ٣٠٨.

ثانياً: كما تباهى مشركو مكة بكثرتهم العددية، وقدرتهم على وأد الدعوة الإسلامية وصاحبها والذين آمنوا معه تباهى التريون بكثرتهم العددية، وقدرتهم على سحق الجيش المملوكى إذ أرسل الغازان محمود إلى الناصر محمد بن قلاوون يهدده بما معه من الجيوش «التي هى كمطبات السحاب»^(١).

ثالثاً: لم يستطع مشركو مكة مواجهة النبى ﷺ وأصحابه عسكرياً، حيث انتصر المسلمون فى بدر، وأحد، والأحزاب، وخسر المشركون فى هذه الحروب الثلاثة مادياً، ومعنوياً. ولم يستطع التريون مواجهة الجيش المملوكى فى مرج الصُفر إذ انتصر السلطان الناصر محمد وجنده عليهم، وكبدوهم خسائر فادحة فى الأنفس والأموال.

وواضح أن جمال الدين التبريزى قد قام بحل التركيب القرآنى حتى تتسنى له عملية تضمينه فى نسيج بيته الشعرى، ثم اعتمد على أسلوب القصر الذى ينهض على النفى والاستثناء فى إعادة بناء الصورة وتشكيلها.

وفى البيت الخامس والأربعين يتوجه الشاعر بالخطاب إلى مستمعيه قائلاً:

٤٥ - فَقَاتِلُوهُمْ جَمِيعًا إِنَّهُمْ نَرُّ

كم أرسلوا رُسُلَهُمْ تَتْرَى وَكَمْ مَكْرُوا

وهو هنا يدعو السلطان أبا الربيع سليمان، والناصر بن قلاوون ومن وراءهما من جند المماليك إلى قتال أعدائهم المتربصين بدولتهم من التريين والصليبيين جميعاً، إذ لا يقل الصليبيون عن التريين فى الهمجية والوحشية، والتخريب والإفساد، فقد «فعلوا فى الصالحية ما لا تفعل التتر»، و «حرقوا فى

(١) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى: ٨ / ١٣٧.

نواحيها»، «وخربوا الشامخ العالى».

وكل من الصليبيين والتترين ينتهجون فى سبيل تحقيق أهدافهم سياسات تقوم على الغش والكذب، والمكر والخيانة، وآية ذلك أن مبعوثيهم الذين تتابعوا على بلاط السلطان المملوكى للتفاوض كانوا جزءاً من منظومة التدليس والغرر الذى يستخدمونها فى الإيقاع بأعدائهم.

ويستوقفنى فى الشطرة الثانية من البيت قوله: «كم أرسلوا رُسُلَهُمْ تَتْرَى» لأنه يحاكى تعبيراً قرآنياً ورد مرة واحدة^(١) فى الكتاب العزيز فى مستهل الآية الرابعة والأربعين من سورة المؤمنون، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلٌّ مَّا جَاءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾^(٢).

والنص القرآنى يشير إلى ما كان من تعاهد الله - تعالى - البشرية بالهداية فى المدة الزمنية الواقعة بين رسالتى النبيّين الكريمين هود وموسى عليهما السلام حيث أرسل الله - تعالى - رسلاً عديدين إلى الأمم والأقوام الكثيرة التى كانت تحيا على البسيطة فى هذا الأمد المتطاوّل^(٣)، كما يشير النص القرآنى إلى ما قوبل به هؤلاء الرسل من الجحود والتكذيب، وإلى ما حاق بهذه الأمم المكذبة من

(١) يراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ص ٧٤١.

(٢) سورة المؤمنون: آية رقم ٤٤.

(٣) يرى الفخر الرازى أن القرآن الكريم يشير على سبيل الإجمال فى هذه الآية إلى ما حدث لأقوام أنبياء الله تعالى لوط، وشعيب، وأيوب، ويوسف عليهم السلام. يراجع مفاتيح الغيب: ٣٧٧/١١.

غضب الله - تعالى - عليهم، ومعاقبته إياهم بالإبادة والاستئصال^(١).

وأظن أن استدعاء التبريزى التعبير القرآنى «ثم أرسلنا رسلنا تترى»، وإدراجه إياه فى ثنايا بيته، كانت تقف وراءه رغبة الشاعر فى الاستفادة من الدلالات المتعددة للفظ «تترى» التى أشار إليها المفسرون، حيث قالوا إنها قد تدل على أن الله - تعالى - أرسل رسله إلى هؤلاء الأقسام رسولاً بعد رسول على فترات زمنية متباعدة، كما قد تدل على أنَّ إرسال هؤلاء الرسل كان على سبيل التتابع بغير مهلة، قال القرطبى: «قال الأصمعى: واطرثُ كَتَبى عليه اتبعْتُ بعضها بعضاً؛ إلا أن بين كل واحدٍ منها وبين الآخر مهلة. وقال غيره: المواثرة التتابع بغير مهلة»^(٢). وكأن الشاعر يريد أن يقول أن مبعوثى الصليبيين والتترين كانوا يردون إلى البلاط السلطانى على فترات متقاربة حيناً، وعلى فترات متباعدة أخرى.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذا هو الموضع الوحيد فى القصيدة الذى حدث فيه التناص فى اللفظ والمفارقة فى الدلالة، لأن التعبير الشعرى بصيغة الإنشاء غير الطلبى «كم أرسلوا رسلهم تترى وكم مكروا» يحمل قدرًا لا بأس به من الدعوة إلى الاستخفاف بهم، وعدم الاهتمام بما يحملون من مراسلات. وفى البيت السادس والستين يخاطب الشاعر جند المماليك محرضاً على قتال الصليبيين قائلاً:

(١) يراجع تفسير الطبرى المسمى «جامع البيان فى تأويل القرآن» طبعة دار الغد العربى بالقاهرة: ٢٣٩/٩.

(٢) تفسير القرطبى: ص ٤٥١٧.

وَأَوْقِرُوا ضِعْفَ مَا أَوْعَوْا وَمَا وَقَرُوا

ونتوقف عند المركب الفعلي الأول في هذا البيت «جوسوا ديارهم» لنلاحظ أن الفعل «جوسوا» يتمى إلى الجذر المعجمى «جوس» الذى تدور معانيه في السياقات التعبيرية المختلفة التى يدخل فيها حول ثلاثة محاور:

الأول: الطواف والطلب، حيث جاء في لسان العرب «وفى الصحاح: جاسوا خلال الديار أى تخللوها فطلبوا ما فيها، كما يجوس الرجل الأخبار، أى يطلبها»^(١).

الثانى: الوطء والدوس، قال ابن منظور: «وكل ما وطىء فقد جيس، والجوس كالدوس، ورجل جواس: يجوس كل شىء يدوسه»^(٢).

الثالث: الجوع والبؤس، قال ابن منظور: «الجوس: الجوع»^(٣). وعلى هذا فالشاعر يدعو جند المماليك إلى وطء ديار أعدائهم ودوسها، وإهلاك ما فيها من الزرع والضرع تنكيلا بها، وإهانة لسكانها، كما يدعوهم إلى الطواف والتجول بين مساكنها، بحثا عن أكابر مجرميها، وتعقبا لأئمة الفساد فيها.

وغنى عن البيان أن هذا التعبير الشعري بدلالاته التى شرحتها مأخوذ من التعبير القرآتى «فجاسوا خلال الديار» الذى ورد مرة واحدة^(٤) في سورة

(١) لسان العرب: ١ / ٧٢٦.

(٢) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٣) السابق نفسه، والصفحة نفسها.

(٤) يراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ص ١٨٦.

الإسراء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾^(١).

وفي البيت الحادى والثمانين يقول التبريزى، فى غضون حديثه عن دمشق:

٨١- ملائِكَ الله تحميها وتحرسها

تَعَاقِبَا، ولها من ربها خَفَرٌ

إن الشاعر -ها هنا- يتحدث عن دمشق فيقول إنها مدينة تحوطها العناية الإلهية، حيث قيضت لها الملائكة التى تتعاقب على حراستها وحمايتها من أن تصيبها الأسواء، أو تأتى على معالمها عوامل الفناء. وهذا معنى قرأنى خالص ورد مرة واحدة^(٢) فى سورة الرعد فى قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾^(٣).

قال القرطبى فى شرح معنى قوله تعالى «له معقبات»: «أى الله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار. فإذا سعدت ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار»^(٤).

وقال فى شرح معنى الحفظ: «اختلف فى الحفظ؛ فقليل: يحتمل أن يكون توكيل الملائكة بهم لحفظهم من الوحوش والهوام والأشياء المضرة، لطفًا منه به،

(١) سورة الإسراء: آية رقم ٥.

(٢) يراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ص ٤٦٨.

(٣) سورة الرعد: آية رقم ١١.

(٤) تفسير القرطبى: ص ٣٥٢٠.

فإذا جاء القدر خلُّوا بينه وبينه، قاله ابن عباس، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنها^(١).

ويقول فى شرح معنى قوله تعالى «من أمر الله»: «أى بأمر الله وبإذنه ف «من» بمعنى الباء، وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض، وقيل «من» بمعنى «عن» أى يحفظونه عن أمر الله، وهذا قريب من الأول؛ أى حفظهم عن أمر الله لا من عند أنفسهم»^(٢).

وتنتشر فى أبيات النص الدوال القرآنية بمعانيها الواردة فى كتابنا المحكم ومن ذلك مثلاً دال «التوبة» الذى استخدمه الشاعر فى قوله:

٥٩ - وجامعُ التوبةِ المحروقُ مهجئُهُ

يُشِيرُ لا توبة للقومِ إن ظَفَرُوا

وهذا البيت قد ورد فى نهاية مجموعة من الأبيات التى تصور بشاعة ما ارتكب الصليبيون فى بلاد الشام من الجرائم، وهى الأبيات التى تبدأ من البيت الثانى والخمسين، وتنتهى بهذا البيت التاسع والخمسين.

وألاحظ أن الشاعر يستثمر البعد الدينى فى حفز همم معاصريه للدفاع عن أرضهم وديارهم، وقد سلك فى هذا البيت مسلكين لتحقيق هذا الهدف، الأول: ويتمثل فى إشارته إلى ما فعله أعداؤهم بالمقدسات الدينية من اعتداءات وانتهاكات، حيث حرقوا جامع التوبة الذى بالعقبة^(٣)، والثانى: ويتجلى فى نفيه

(١) تفسير القرطبي: ص ٣٥٢٠.

(٢) السابق نفسه: ص ٣٥٢١.

(٣) يراجع حديث النعيمي عن هذا الجامع فى الدارس فى تاريخ المدارس: ٢ / ٤٢٦.

لمستمعيه احتمال توبة هؤلاء إن هم ظفروا بما يريدون من الاستيلاء على دمشق.
ويقابلنا في البيت الحادى والخمسين المركب الفعلى [اذْكُرُوا] وذلك فى قول
الشاعر:

٥١- اشفوا صُدُورَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرًا

على نساءكُمْ يا قومُ واذْكُرُوا
وهو يتكون من فعل الأمر [اذْكُرْ]، و [واو الجماعة] التى هى فاعله،
ولست أعرف على وجه اليقين إلى أى جذر معجمى ينتمى هذا الفعل، وما بين
أيدينا من أقوال العلماء فيه يشير إلى أنه قد يكون من مادة [ذَكَرَ]، وقد يكون
أصله [اذتكر].

وعلى الاحتمال الأول يكون هذا اللفظ غير عربى، قال ابن منظور «وقد
قال الليث: الذَّكْرُ ليس من كلام العرب»^(١)، وَخَطَأً ربعة فيما تَنْطِقُ به فقال:
«وربعة تغلط فى الذَّكْر فتقول ذِكر»^(٢).

وعلى الاحتمال الثانى يكون هذا اللفظ عربياً غير أنه قد دخله الإبدال
والإدغام، قال القرطبى: «قال النحاس: أصل اذكر اذتكر، والذال قريبة المخرج
من التاء، ولم يجز إدغامها فيها لأن الذال مجهورة، والتاء مهموسة... فأبدلوا من
موضع التاء حرفاً مجهوراً وهو الدال... فصار اذدكر، فأدغموا الذال فى الدال
لرخاوة الدال ولينها»^(٣).

(١) لسان العرب: ٢ / ١٤٠٣.

(٢) السابق نفسه والصفحة نفسها.

(٣) تفسير القرطبى: ص ٣٤٣٠.

وسواء أضح ما نقله ابن منظور عن الليث وكان اللفظ غير عربى، أم لم يصح وكان عربياً، فالملاحظ أنه غير شائع الاستخدام فى العربية.

وقد ورد الفعل (ادَّكَرَ) مرة واحدة فى القرآن الكريم^(١) فى قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾^(٢).

ووردت صيغة (مُدَّكِر) ست مرات فى سورة واحدة هى سورة القمر^(٣)، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾^(٤)، وتكرر قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾^(٥) أربع مرات، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾^(٦).

ويرى الإمام القرطبى أن معنى قوله تعالى: «وادكر بعد أمة» أى تذكر بعد حين^(٧)، ويقول الطبرى فى تفسير قوله تعالى: «فهل من مدكر»، «يقول: فهل من معتبر متعظ يتذكر فيعتبر بما فيه من العبر والذكر»^(٨).

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن: لم أثر الشاعر هذا التعبير (ادَّكَرُوا)، ورفض ما سواه من التعبيرات المألوفة فى الاستعمال اللغوى العربى من مثل:

(١) يراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ص ٢٧٥.

(٢) سورة يوسف: آية رقم ٤٥.

(٣) يراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ص ٢٧٥.

(٤) سورة القمر: آية رقم ١٥.

(٥) سورة القمر: الآيات ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠.

(٦) سورة القمر: آية رقم ٥١.

(٧) تفسير القرطبى: ص ٣٤٣٠.

(٨) تفسير الطبرى: ١١/٦٠٢.

اعتبروا، واتعظوا؟

ولعل الجواب يكمن في أن الشاعر يريد أن يلفت مستمعيه إلى أن ما حلَّ بهم من البلاء على أيدي الفرنجة لا ينبغي نسيانه، لأنه أصابهم في أعراضهم، وأموالهم، وأنفسهم إذ

٥٢- كَمْ مِنْ عَجُوزٍ وَمِنْ شَيْخٍ وَمُكْتَهِلٍ

وَمِنْ فِتَاةٍ نَهَاها الْحُسْنُ وَالْحَقَرُ

٥٣- بَيْنَ ضَاءِ خُرْعُوبَةٍ بِكْرٍ مُحَجَّجَةٍ

لَا الشَّمْسُ تَنْظُرُهَا صَوْنًا وَلَا الْقَمَرُ

٥٤- وَذَاتِ بَغْلٍ مُحَبَّأَةٍ مُحَدَّرَةٍ

مِنْ دُونِهَا تُضْرَبُ الْأَسْتَارُ قَدْ أَسْرُوا

٥٥- وَمُطْفِلٍ أَتَكَلُّوا وَجَدًا بِوَاحِدِهَا

وَحَامِلٍ أَجْهَضَتْ خَوْفًا وَقَدْ ذُكِرُوا

٥٦- وَمَرَبِعٍ أَقْفَرُوا مِنْ بَعْدِ سَاكِنِهِ

وَعَقْدٍ شَمِلَ نَظِيمٍ جَامِعٍ نَشَرُوا

ويرى صبرى حافظ أن النقد العربى حافل بالعديد من المصطلحات التى تحمل أفكارًا تناصية مهمة^(١)، ومن هذه المصطلحات مصطلح الاقتباس الذى

(١) يراجع التناص وإشارات العمل الأدبى لصبرى حافظ، مقال منشور بمجلة ألف، العدد الرابع، ربيع ١٩٨٤ الصفحات من ٢٦ - ٣٠.

يعنى: «أن يضمن المتكلم كلامه كلمة من آية، أو آية من آيات كتاب الله خاصة»^(١).
وواضح أن ما ورد من تناسخ مع ألفاظ القرآن الكريم وتراكيبه فيما أشرت
إليه من الأبيات السابقة كان يدخل في إطار الاقتباس عند لفيف من البلاغيين
القدماء.

ومن هذه المصطلحات- أيضا - مصطلح الإشارة الذى يعنى عند
أصحاب البديع «أن يكون اللفظ القليل مشتملاً على المعنى الكثير بإيماء ولمحة
تدل عليه»^(٢)، ولعل من هذا المستوى التناصى قول التبريزى فى البيت السابع
والتسعين يمدح الخليفة أبا الريح سليمان
٩٧- ماذا أقول بمدحيه وَقَدْ ثَلَيْتْ

فى مدح آبائه الآيات والسُّورُ
لأنه يشير فى هذا البيت إلى الآيات القرآنية التى أثنت على آل بيت النبى ﷺ
من مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ
وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾^(٣). وقوله فى البيت الذى يليه:

٩٨- جَاءَتْ بِنَعْتِهِمُ التَّوْرَةُ مَعْرَبَةً
وَمُحْكَمُ الذِّكْرِ وَالْإِنْجِيلُ وَالزُّبُرُ .

(١) خزانة الأدب لابن حجة الحموى: ٢ / ٤٥٥.

(٢) خزانة الأدب لابن حجة الحموى: ٢ / ٢٥٨، وحسن التوسل للشهاب محمود:
ص ١٠٠.

(٣) سورة الأحزاب: آية رقم ٣٣.

إذ يشير إلى قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ
رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي
وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَرَجٍ أُخْرِجَ
شَطَطُهُ فَفَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ
وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾^(١).

وهذه الآية لا تتحدث عن صفات آل بيت النبي ﷺ، وإنما تتحدث عن
صفات أصحابه الذين آمنوا به، وعزروه، ونصروه، ويدخل فيها الصحابة من
آل البيت - رضوان الله عليهم - بوصفهم من أتباعه الذين معه، وعلى هذا فإن
إشارة الشاعر إلى هذه الآية في بيته غير دقيقة.



(١) سورة الفتح: آية رقم ٢٩.

المبحث الثاني التناسخ مع التراث الشعري

يحتل التناسخ مع التراث الشعري العربي في هذه القصيدة المرتبة الثانية بعد التناسخ مع القرآن الكريم.

وأول المواضع التي حدث فيها تناسخ مع الشعر القديم هو قوله في البيتين الخامس والسادس:

٥- أَيْنَ النُّجُومُ وَتَأْتِيَرُ الْقِرَانُ وَمَا

تَخَرَّصُوا فِيهِ مِنْ إِفْكِ وَمَا زَجَرُوا

٦- قَدْ دَبَّرَ اللَّهُ أَمْرًا غَيْرَ أَمْرِهِمْ

وَحَابَ مَا زَخَرَفُوا فِينَا وَمَا هَجَرُوا

ولاشك أن النص المسيطر على الروح الشعرية في البيتين هو قول أبي تمام في بائيته

أَيْنَ الرُّوَايَةُ، بَلْ أَيْنَ النُّجُومُ وَمَا صَاغُوهُ مِنْ زَخْرَفٍ فِيهَا وَمِنْ كَذِبٍ

تَخَرَّصُوا، وَأَحَادِيثًا مَلْفَقَةً لَيْسَتْ يَنْبَغُ إِذْ عُذَّتْ وَلَا غَرَبَ

عَجَائِبُ زَعَمُوا الْأَيَّامَ مَجْفَلَةً عَنْهُمْ فِي صَفَرِ الْأَصْفَارِ أَوْ رَجَبٍ

وَخَوْفُوا النَّاسَ مِنْ دَهْيَاءَ مَظْلَمَةٍ إِذَا بَدَا الْكَوْكَبُ الْغَرْبِيُّ ذُو الدَّنَبِ

وَصَيَّرُوا الْأَبْرَجَ الْعَلِيَّامَ مَرْتَبَةً مَا كَانَ مُنْقَلَبًا أَوْ غَيْرَ مُنْقَلَبٍ

يَقْضُونَ بِالْأَمْرِ عَنْهَا وَهِيَ غَافِلَةٌ مَا دَارَ فِي فَلَكٍ مِنْهَا وَفِي قُطْبِ

والفارق الذي بين أبي تمام وجمال الدين التبريزي، أن أبا تمام قد استهل

قصيدته بالسخرية بالمنجمين، والهزء بهم في عشرة أبيات بسبب أنهم خوفوا

المعتصم من خوض الحرب في الوقت الذي اختاره لها، وذلك حين قالوا له - وقد جمعهم لأخذ مشورتهم - إن كتبنا تشير إلى أن فتحها لن يكون إلا عند نضج التين والعنب. يقول المؤرخون أصمَّ المعتصم أذنيه، ولم يستمع لهذه المشورة التي رأى فيها تثبيطاً وتحاذلاً، ومضى لفتح عمورية في الوقت الذي اختاره فتحقق له النصر.

وكان أبا تمام يريد في مطلع النص أن يعلن «ما اقتنع به من فلسفة القوة»^(١)، وأن يدعو إلى رفض الأفكار والفلسفات التي تقوم على الوهم أو الدجل. أما جمال الدين التبريزي فلم يكن لحديثه عن النجوم والمنجمين وتخرصاتهم في البيتين اللذين أوردتهما ما يبرره، إذ لم تشر المصادر التاريخية إلى أن أحداً من المنجمين قد تحدث مع الناصر محمد بن قلاوون في شيء يتعلق بأمر موقعة مرج الصفر على الإطلاق.

وفي البيت التاسع والثمانين وما بعده يمدح التبريزي الخليفة العباسي بالقاهرة أبا الربيع سليمان فيقول:

٨٩- أبو الرَّبِيعِ سُلَيْمَانُ الَّذِي شَهِدَتْ

بِفَضْلِهِ الْمُسْتَفَاضِ الْبَسْدُ وَالْحَصْرُ

٩٠- وَزَمْزَمٌ وَالصَّافَا وَالْمَازِمَانِ مَعَا

وَالْبَيْتُ يَعْرِفُهُ وَالْحِجْرُ وَالْحَجَرُ

وهو في هذين البيتين يتناص مع أبيات الفرزدق التي قالها في مديح علي ابن

الحسين بن علي بن أبي طالب التي منها:

(١) القصيدة العباسية قضايا واتجاهات للدكتور عبد الله التطاوي: ص ٢٧٤.

هذا الذى تَعْرِفُ البطحاء وطائتهُ والبيتُ يَعْرِفُهُ والحِلُّ والحَرَمُ
 هذا على رَسولِ الله والِدُهُ أُمِسَتْ بنور هدها تهتدى الأُمَمُ
 مِنْ مَعَشَرِ حُبِّهِمْ دِينٌ، وَبَعْضُهُمْ كُفِّرَ، وَقَرُبُهُمْ مَنْجَى وَمَعْتَصَمُ
 إِنَّ عُدَّ أَهْلَ التَّقَى كانوا ائمتَّهُمْ أَوْ قِيلَ مَنْ خَيْرُ أَهْلِ الأَرْضِ قِيلَ هُمْ
 لَا يَسْتَطِيعُ جِوَادُ بُعْدِ جِوَدِهِمْ وَلَا يُدَانِيهِمْ مِنْهُمْ قَوْمٌ وَإِنْ كَرُمُوا
 فليس قولك مَنْ هذا بَصَائِرِهِ العُرْبُ تَعْرِفُ مَنْ أَنْكَرَتْ والعَجَمُ

ويذكر الرواة أن الفرزدق قال هذه الميمية العصماء في موسم الحج ردًا على الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك الذى ساءه أن يفسح الناس لعلى بن الحسين في الطواف، وأن ينزلوه منزلته التى تليق به من الإجلال والإكرام^(١).

والفرزدق في هذا المقطع الذى اخترناه منها يرد على إساءة الخليفة الأموى، ويمتدح على بن الحسين بمجموعة من الصفات هى انتباهه إلى الدوحة النبوية المباركة، والتقى، والطهر، وصفاء النفس ونقاؤها، ونباهة الذكر.

واستدعاء جمال الدين التبريزى هذا النص التراثى في سياق مديحه الخليفة العباسى أبا الربيع سليمان لا يخلو من دلالة، ولكن ما هى؟

أريد التبريزى أن يشير إلى أن ثمة وجوهاً من المشابهة بين عمدوحه وعمدوح الفرزدق؟ أم يريد أن يُعْلَى من شأن الخليفة العباسى وصولاً إلى إضفاء الشرعية على حكم المماليك؟

أغلب الظن أنه يريد الإعلاء من شأن الخليفة العباسى إضفاءً للشرعية على حكم المماليك، وذلك لإفراطه الشديد فى امتداح الخليفة والسلطان معا فلقد

(١) ديوان الفرزدق، تحقيق وشرح كرم البستانى، ٢ / ١٧٨.

امتدحهما بالعدل في قوله:

٨٥- إِذَا تَأَمَّلْتَ فَحَوَى سِرَّ حُكْمِهِمَا

لَمْ تَذَرِ أَيُّهُمَا فِي عَذْلِهِ عُمَرُ

وامتدحهما بالعلم في قوله:

٨٦- وَلَوْ رَأَيْتَهُمَا يَوْمًا خَالَكَ أَنْ

موسى بن عمران قد وافاك والخضر

وامتدحهما بالعفة والتقى، وحسن السمعة، وطيب الذكر فقال:

٨٧- هَمَّارُضِيْعَا لِبَانٍ عِفَّةً وَتَقَى

وحسن ذكر شذاه فائح عطر

وعقد عليهما الآمال في إعادة ما سلبه التار من ديار الإسلام فقال في

معرض امتداحه للناصر محمد:

١٠٤- إِنَّا لَنَرْجُوهُ مِنْ بَغْدَادَ يُنْهَلُهَا

بماءٍ دَجَلَةٍ يَرْوِيهَا فَتُصْطَلِرُ

١٠٥- وَيَجْمَعُ الشُّمْلَ فِي دَارِ السَّلَامِ بِمَنْ

يُوَدُّهَا وَيُوَدُّونَ الَّذِي نَذَرُوا

١٠٦- يَوْمُهَا وَإِمَامَ الْمُسْلِمِينَ مَعَا

ثقوا بقولي فهذا منه مُتَّظَرُ

ويقول التبريزي في سياق مديحه الخليفة العباسي أيضا:

٩١- خَلِيقَةُ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا وَطَاعَتُهُ

فرض عليكم وهذا القول مختصر

به إلى الله نَسْتَسْقَى فَنُمْتَطِرُ

وهو في هذين البيتين يتناص مع الأخطل الشاعر الأموي المشهور في قوله
ممتدحا عبد الملك بن مروان:

الخائِضُ الغَمَرُ، والميمون طائرُهُ خليفةُ الله يُسْتَسْقَى به المطرُ

وبيت الأخطل من قصيدة رائية مشهورة مطلعها:

خَفَّ القَطِينَ فراحوا منك أو بكروا وأزعجتهم نوى في صرفها غيرُ

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا هو: وعلام يدل هذا التناص؟

والجواب: إنه يدل - فيما أتصور - على أن التبريزى يعى تاريخ أمته

العربية، ويعى تاريخ نضالها السياسى لتبقى قوية في مواجهة أعدائها من الروم
الذين يتحرشون بها بين الحين والحين، والدليل على ذلك الوعى أن النصوص
الشعرية الخالدة التى قيلت في امتداح أبطال هذا النضال محفورة في ذاكرته، إذ لا
يجب أن ننسى في هذا السياق أن الأخطل قد امتدح عبد الملك بن مروان بقصيدة
بائية قال فيها^(٢):

وفي كلِّ عامٍ منك للروم غزوةٌ بعيدة آثار السنايك والسَّربِ
يُطَرِّخُنَ بالشَّعر السَّخالَ كأنها يُشَقِّقُنَ بالأَسلاء أُرديَّة العَصْبِ

(١) يراجع في تحليل النص: الأخطل شاعر بنى أمية للدكتور سيد غازى: ص ١١٧ وما بعدها.

(٢) يراجع في تحليل النص: الأخطل شاعر بنى أمية للدكتور سيد غازى: ص ١٢٣ وما بعدها.

بناتُ غرابٍ لم تُكَمِّلْ شهورها تَقَلَّقْنَ من طولِ المفاوز والجدبِ
وإنَّ لها يومين يومَ إقامة ويومًا تشكَّى القَصَّ من حذر الدربِ
غموسُ الدجى تنشقُّ عن مُتَضَرِّمٍ طلبِ الأعدى لا سئومٍ ولا وَجِبِ



المبحث الثالث

بين جمال الدين التبريزي، ولقيط بن يعمر الإيادي

بين جمال الدين التبريزي صاحب الرائية موضوع الدراسة، ولقيط بن يعمر الأيادي الشاعر الجاهلي المشهور صاحب العينية التي حرّض فيها قومه على ردّ عادية الفرس قبل يوم ذي قار، بينهما مشابه كثيرة منها:

أولاً: أن كل واحدٍ من الشعارين كان خطيباً مدرّها إلى جوار كونه شاعراً مقلّماً، فالتبريزي واحدٌ من خطباء القرن الثامن الهجري المشهورين، وله - كما سبق أن أشرنا - ديوان خطب «سماء تحفة الألباء»^(١). ولقد روت سجلات التاريخ أنه خطب يوماً نائباً عن ابن جماعة بجامع دمشق فأحدثت الخطبة في نفوس المستمعين أثراً طيباً فهُرِع بعض تلامذة ابن جماعة إلى شيخهم وقالوا له «لو دام هذا راحت منك الخطابة»^(٢)، وذلك لما رأوا من تحقق صفات الخطيب الناجح في التبريزي حيث كان «ذا شكالة وعمّة، وحركات وهمّة، أبيض اللحية نقيها، أحمر الوجنة ورديةا، عليه قبول، وللنفس إليه تشوّق وبه ذهول»^(٣).

ولقيط بن يعمر الإيادي كان أحد خطباء إياد الخمسة المشهورين قس بن ساعدة، ولقيط بن يعمر، وعذرة بن حجرية، وزيد بن جندب، وأبو داود بن حريز، وقد ذكروا جميعاً في قول أحد الشعراء في رثاء أبي داود بن حريز^(٤):

(١) أعيان العصر وأعوان النصر للصفدي ١٢٧/٣، والدرر الكامنة لابن حجر ٨/٣، وانظر المبحث الأول من هذا الفصل.

(٢) السابق نفسه ص ١٢٦.

(٣) السابق نفسه ص ١٢٤.

(٤) البيان والتبيين للجاحظ ٤٣/١، وانظر: ديوان لقيط بن يعمر صفحة ٨ هامش رقم ٣ ففيه إشارة نفيسة.

زَعِيم نَزَارِ كُلِّهَا وَخَطِيئُهَا إِذَا قَامَ طَاطَا رَأْسُهُ كُلُّ مِشْغَبٍ
سَلِيلِ قُرُومٍ سَادَةٍ ثُمَّ قَالَةٍ يَبْذُونَ يَوْمَ الْجَمْعِ أَهْلَ الْمُحْصَبِ
كَقَسِّ إِيَادٍ أَوْ لَقِيطِ بْنِ يَعْمَرٍ وَعُذْرَةٌ وَالْمَنْطِيقُ زَيْدُ بْنُ جَنْدَبٍ

ثانيًا: أن كلا الشاعرين فقد ديوان شعره، ولم يتبق منه في سجلات التاريخ السياسي والأدبي للأمة العربية سوى قصيدة واحدة وبضع مقطوعات، فلقد ضاع شعر التبريزي، ولم يصل إلينا منه سوى القصيدة الرائية وتسع مقطوعات شعرية^(١)، وضاع شعر لقيط بن يعمر ولم يتبق منه سوى القصيدة العينية ومقطوعة شعرية واحدة من أربعة أبيات^(٢).

ثالثًا: أن النصين اللذين سلما للشاعرين كانا في موضوع واحد، وهو موضوع الدفاع عن القومية العربية، والذود عن حياضها، والتحريض على ردّ عادية المعتدين على بيضتها.

رابعًا: أن نصّي الشاعرين قد حازا شهرة واسعة، وحظيا باهتمام النقاد ومؤرخي الآداب، فلقد مرّ بنا ثناء كل من الدواداري، والنويري، وابن حجر العسقلاني على الرائية، أما عينية لقيط بن يعمر فيبدو أنها كانت من النصوص التي حظيت بانتشار واسع، فلقد ذكر المبرّد أن الحجاج بن يوسف الثقفي

(١) أورد الرائية - كما سبق أن أشرنا - الدواداري في كنز الدرر، والنويري في نهاية الأرب، والمقطوعات يوجد منها ستا بأعيان العصر والوافي بالوفيات، ويوجد منها اثنتان بتذكرة النبيه، وواحدة بالدرر الكامنة.

(٢) ينظر: ديوان لقيط بن يعمر ص ٢١.

وصف ببعض أبياتها المهلب بن أبي صفرة^(١)، وورد منها خمسة أبيات في العقد الفريد لابن عبد ربه^(٢)، ويذكر الدكتور عبد المعيد خان أن ابن دريد يعدها أفضل قصيدة تحذير كتبها العرب^(٣).

وأستطيع أن أقرر أن عينية لقيط كانت تقف بألفاظها، ومعانيها، وموسيقاها في الخلفية الثقافية لجمال الدين التبريزي وهو ينظم رائيته، فلقد جاءت الرائية من البحر نفسه الذي تعتري إليه العينية، وهو بحر البسيط، ومن صورته التي نظم عليها لقيط نصّه، وهي الصورة الأولى من صور تشكيلاته التامة، تلك التي تكون العروض فيها مخنونة ويكون الضرب مثلها.

وعرفت ألفاظ العينية ومعانيها سبيلها إلى نص الرائية، فها هو ذا لقيط بن يعمر يتحدث عن زحف الفرس على قبائل العرب بجيش عرمرم فيقول^(٤):

لو أن جمعهم راموا بهدته شَمَّ الشاربخ من ثهلان لا نصدعا
يريد لقيط أن يقول: إن الفرس قد أعدوا لحرب الإيادين جيشًا كثيفًا لو
طُلِبَ منه أن يُخَضِّعَ جبل ثهلان لأذله بِدَكِّ أعاليه، وتصديع جوانبه وسائر
نواحيه.

ويستوقفنا في بيت لقيط المركب الإضافي «شم الشاربخ» لأن جمال الدين التبريزي قد استخدمه في رائيته عند الحديث عن فرار جند التار ولجوئهم إلى أعالي الجبال هربًا من شدة بأس الجيش المصري يقول التبريزي:

(١) الكامل في اللغة والأدب ٢/٢٩٦.

(٢) العقد الفريد ٥/٢٦٨.

(٣) ديوان لقيط ص ١٤.

(٤) ديوان لقيط ص ٤١.

لاذوا بِشُمِّ شَمَارِيخِ الْجِبَالِ فَمَا .: حَمَتَهُمْ قَلْلٌ مِنْهَا وَلَا مُغَسَّرٌ
وَيَدْعُو لِقِيطَ قَوْمِهِ إِلَى التَّأْهِبِ لِمَلَاقَاةِ الْفَرَسِ، وَإِعْدَادِ الْعِدَّةِ لِمُوَاجَهَةِ
جِحَافِهِمْ فَيَقُولُ:

صَوْنُوا جِيَادَكُمْ، وَاجْلُوا سِيوفَكُمْ .: وَجَدُّدُوا لِلْقِسِيِّ النَّبْلَ وَالشَّرْعَا
وَيَسْتَرْعَى انْتِبَاهَنَا أَنَّ التَّبْرِيزِيَّ اسْتَحْدَمَ الْمَرْكَبَ الْفَعْلِيَّ الْأَوَّلَ فِي هَذَا الْبَيْتِ
(صَوْنُوا جِيَادَكُمْ) مَرَّتَيْنِ فِي رَأْيَيْهِ إِحْدَاهُمَا بِالصِّيغَةِ نَفْسَهَا الَّتِي وَرَدَتْ عِنْدَ
لَقِيطٍ، أَعْنِي بِهَا صِيغَةُ الْأَمْرِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ:

صَوْنُوا جِيَادَكُمْ اللَّاتِي بِكُمْ لَجِبَتْ .: فِي بَارِقِ الْحَرْبِ وَالرَّمْضَاءِ تَسْتَعْرِ
وَالتَّبْرِيزِيَّ فِي هَذَا الْبَيْتِ يَأْمُرُ الْجَيْشَ الْمُنْتَصِرَ بِإِكْرَامِ الْخِيُولِ وَرِعَايَتِهَا، بَعْدَ
الْجُهْدِ الْمُضْنِيِّ الَّذِي تَحْمَشَّمَتْهُ فِي مَوْقِعَةِ مَرْجِ الصُّفَرِّ، وَهُوَ سِيَاقٌ يَخْتَلِفُ عَنِ
السِّيَاقِ الَّذِي وَرَدَ فِيهِ هَذَا الْمَرْكَبُ الْفَعْلِيُّ فِي بَيْتِ لَقِيطٍ، لِأَنَّ لَقِيطًا كَانَ يَدْعُو
قَوْمَهُ إِلَى صَيَانَةِ الْجِيَادِ بِتَفْقُدهَا، وَإِطْعَامِهَا، وَعِلَاجِ مَا يَحْتَاجُ مِنْهَا إِلَى عِلَاجٍ تَأْهِبًا
لِخَوْضِ الْمَعْرَكَةِ.

وَالْمَرَّةُ الْأُخْرَى الَّتِي وَرَدَ فِيهَا هَذَا الْمَرْكَبُ كَانَ فِي قَوْلِ التَّبْرِيزِيِّ مُفْتَخِرًا بِمَا
أَعَدَّ الْمَصْرِيُّونَ لِلنَّتْرَيْنِ مِنْ عِدَّةٍ

صَانُوا الْجِيَادَ، وَسَنُوا كُلَّ ذِي شُطْبٍ .: وَجُدَّدَتْ لِلْقِسِيِّ النَّبْلَ وَالْوَثْرَ
وَيَذْكُرُ لَقِيطُ قَوْمَهُ أَنَّ الْفَرَسَ لَا تَفْتَرُ لَهُمْ هِمَّةٌ فِي الْعَمَلِ عَلَى اسْتِصْصَالِ شَافَةِ
الْعَرَبِ، وَيَرَى أَنَّ أَحْرَارَ فَارَسٍ فِي سَبِيلِ تَحْقِيقِ هَذَا الْمَأْرَبِ لَا يَرْكَنُونَ إِلَى الدَّعَةِ،
وَلَا يَخْلُدُونَ إِلَى الرَّاحَةِ، وَلَا يَنْشَغِلُونَ بِمَا يَنْشَغِلُ بِهِ أَبْنَاءُ يَعْزُبُ مِنَ الْإِزْدِرَاعِ
وَالْحَرْثِ، وَالْعَمَلِ عَلَى تَكْثِيرِ الْأَنْعَامِ، وَادْخَارِ الْأَمْوَالِ، وَفِي هَذَا يَقُولُ:

في كلِّ يومٍ يسنون الحراب لكم لا يهجعون إذا ما غافلٌ هجعا
 لا الحرثُ يشغلهم بل لا يرون لهم من دون بيضتكم ربًّا ولا شِبعًا
 وأنتم تحرثون الأرض عن سفيه في كلِّ مُعْتَمِلٍ تبغون مزدرا
 وتُلْقِحون حِيَالَ الشَّوْلِ آوَنَةً وتُتَجُّون بدارِ القلعةِ الرُّبْعَا
 وينعي التبريزي على قومه هجوعهم، واستنامتهم في الوقت الذي يسهر فيه
 التريون والصليبيون للمكر بهم فيقول:

أيرقدُ الليل في أمني وفي دعةٍ .: عن كيد قوم لهم في شأنكم سَهْرُ
 ويدعوهم إلى عدم الانشغال بزينه الحياة الدنيا، ويرغبهم فيما أعدَّ الله
 للشهداء في الآخرة فيقول:

ذروا التكاثر فالدنيا لمن زويت .: في جنب ما وعد الرحمن تُحْتَرُّ
 ويعدُّ، فلقد كان هذا حديث التناص والدلالة في رائية التبريزي، ولا
 أستطيع إلا أن أسلم بما قاله الدكتور محمد مفتاح من أن «التناص ظاهرة معقدة
 تستعصي على الضبط والتفنين»^(١). لأنها كما قال «تعتمد في تمييزها على ثقافة
 المتلقي، وسعة معرفته، وقدرته على الترجيح»^(٢)، وهي أمور لم تنهياً لكاتب هذه
 السطور بعد.



(١) إستراتيجية التناص للدكتور محمد مفتاح ص ١٣١.

(٢) السابق نفسه والصفحة نفسها.

الخاتمة

تحدثت في الصفحات السابقة عن جانبين مهمين من جوانب البحث المتعددة التي يمكن أن تفجرها قصيدة جمال الدين التبريزي الرائية التي نظمها عقب انتصار المصريين على التتريين في موقعة مرج الصفر عام ٧٠٢هـ.

وأول هذين الجانبين كان يتعلق بالسياقات السياسية والاجتماعية التي حفزت المبدع إلى إنشاء النص، والآخر كان يتعلق بدلالة النص على ملكات مبدعه اللغوية والثقافية، والفنية، ولقد بينت في المقدمة الأسباب التي دعتنى إلى إثارة هذين الجانبين بالدرس، والمنهج الذى ارتضيته في درسهما، وحسبى أن أشير - هنا- في الخاتمة إلى أهم ما توصلت إليه من نتائج:-

أولاً: لعلى أكون قد أمطت اللثام عن شخصية شاعر من كبار شعراء القرن الثامن الهجرى الذين سقطت دواينهم من يد الزمن، وهو جمال الدين التبريزي وذلك بما ذكرته في غضون البحث عن مولده، وثقافته، وبلاغته، ولسنه، وتدرجه في وظائف الخطابة، والقضاء، والتدريس، ومؤلفاته، وآراء العلماء والأدباء فيها، ووفاته...

ثانياً: بينت كيف واکب الشعر في عصر الدولة المملوكية الأولى - ممثلاً في رائية التبريزي- الأحداث السياسية والعسكرية المهمة في ذلك الزمان، وكيف انفاعل بها، وتفاعل معها، وعبر عنها واصفاً أحوال الأمة العربية في أتراحها وأفراحها.

ثالثاً: استطاع البحث أن يجلى الدور المحورى الذى قامت به مصر بغية درء الأخطار التي أهدقت بالعالمين العربى والإسلامى في القرن الثامن الهجرى، ولقد تمثل هذا الدور في دفاع المصريين عن أرض العروبة والإسلام، ورد عادية

التبرين والصليبيين الذين قدموا إليها من المشرق، والمغرب تحذوهم الرغبة في انتهاب ثرواتها، وإذلال أهلها.

رابعاً: أبان البحث أن جمال الدين التبريزي كثيراً ما يقع في الضرائر الشعرية بنوعيتها النحوى والصرفى، وأن عددًا غير قليل من الضرائر التى ارتكبها لم يكن هناك ما يدعو موسيقياً إلى الوقوع فيها.

خامساً: استطاع البحث أن يحدد مفهوم الانسجام عند نقاد القرن الثامن الهجرى وبلاغيه، واستطاع فى ضوء هذا التحديد أن يتبين مدى إصابة ابن حجر العسقلانى فى وصفه رائية التبريزى بالانسجام.

سادساً: لاحظ البحث أن ثقافة الشاعر الدينية قد طغت بشكل مباشر على البنى التركيبية للنص الشعرى، وأبان كيف كان القرآن الكريم بصفة خاصة النص المسيطر أو الموجه للروح الشعرية فى الرائية.

سابعاً: لاحظ الباحث أن الشاعر قد تناص مع عددٍ من النصوص الشعرية لفحول شعراء العربية الكبار من مثل لقيط بن يعمر الإيادي الشاعر الجاهلي المشهور، رانفرزدق والأخطل من شعراء بنى أمية، وأبى تمام شاعر الصنعة فى العصر العباسى الأول.

ثامناً: يرى الباحث أن كثرة مواضع التناص مع القرآن الكريم، والشعر العربى القديم تدز على ظاهرة الانجذاب إلى التراث التى كانت شائعة فى العصر المملوكى الأول بعية: تأكيد الهوية العربية والإسلامية للمجتمع.

كانت هذه - فيما أظن - أهم نتائج البحث، والحمد لله بدءاً ومختتماً، وعليه سبحانه - قصد السبيل.

مصادر البحث ومراجعته

- (١) الأخطل شاعر بنى أمية، للدكتور سيد غازى، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، ١٩٧٦م.
- (٢) الأغاني، لأبى الفرج الأصفهاني، الجزء الثامن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٢م.
- (٣) أعيان العصر، وأعوان النصر، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى، تحقيق الدكتور على أبو زيد وزملائه، قدّم له مازن عبد القادر المبارك، دار الفكر المعاصر بيروت، ودار الفكر بدمشق، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.
- (٤) أوزان الشعر العربى وقوافيه، دراسة وتحليل، للدكتور إبراهيم محمد أحمد الإدكاوى، مركز معالجة الوثائق، شبين الكوم، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.
- (٥) بدائع الزهور فى وقائع الدهور، لمحمد بن أحمد بن إياس الحنفى، حققها وكتب لها المقدمة محمد مصطفى، الجزء الأول، القسم الأول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- (٦) البيان والتبين، لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، بتحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر، العدد ٨٥، القاهرة ٢٠٠٣م.
- (٧) تحليل الخطاب الشعرى: استراتيجية التناص، للدكتور محمد مفتاح، المركز الثقافى العربى، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٩٢م.

- (٨) تذكرة النبيه بأيام المنصور وبنيه، لابن حبيب الحلبي، تحقيق محمد محمد أمين، ومراجعة د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة.
- (٩) التحفة المسكية في الدولة التركية، من كتاب الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين، لصارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدير المعروف بابن دقماق، تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.
- (١٠) التناص وإشارات العمل الأدبي، لصبري حافظ، بحث منشور بمجلة البلاغة المقارنة ألف، العدد الرابع، ربيع ١٩٨٤م.
- (١١) التناصية، لليون سومفيل، ترجمة وائل بركات، مجلة علامات، الجزء الواحد والعشرون، المجلد السادس، سبتمبر ١٩٩٦م.
- (١٢) جامع البيان في تأويل القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، طبعة دار الغد العربي، القاهرة، د.ت.
- (١٣) الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، طبعة دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٠م.
- (١٤) حسن التوصل إلى صناعة الترسل، لشهاب الدين أبي الشاء محمود الحلبي، طبعة هندية، مصر، ١٣١٥هـ.
- (١٥) الدارس في تاريخ المدارس، لعبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي، عنى بنشره وتحقيقه جعفر الحسنى عضو المجمع العلمى العربى، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٨٨م.

- (١٦) دراسات في أدب ونصوص العصر الأموي، للدكتور محمد عبد القادر أحمد، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.
- (١٧) خزانة الأدب، وغاية الأرب، لتقى الدين أبى بكر بن حجة الحموى، شرح عصام شعيتو، دار مكتبة الهلال، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٧م.
- (١٨) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لشهاب الدين أحمد بن حجر العسقلاني، حققه وقدم له ووضع فهرسه محمد سيد جاد الحق، أم القرى للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.
- (١٩) ديوان الحافظ ابن حجر العسقلاني، دراسة وتحقيق د. صبحى رشاد عبد الكريم، دار الصحابة للتراث بطنطا، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- (٢٠) ديوان الفرزدق، تحقيق وشرح كرم البستاني، دار صادر، بيروت، د.ت.
- (٢١) ديوان لقيط بن يعمر، حققه وقدم له الدكتور عبد المعيد خان، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.
- (٢٢) ذم الخطأ في الشعر، لابن فارس اللغوى، حققه وقدم له وعلق عليه الدكتور رمضان عبد التواب، الناشر مكتبة الخانجي بمصر ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- (٢٣) الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر، لعلاء الدين علي بن عبد الظاهر المتوفي ٧١٧هـ تحقيق الأستاذ الدكتور عمر عبد السلام تدمري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
- (٢٤) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، للدكتور الشيخ محمد بن محمد أبو شهبه، دار القلم بدمشق، الطبعة الخامسة ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

(٢٥) شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسن البديع، لصفى الدين الحلى، تحقيق الدكتور نسيب نشاوى، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ١٩٨٣م.

(٢٦) الصاحبى في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، لأبى الحسين أحمد بن فارس، تحقيق السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٧٧م.

(٢٧) الضرورة الشعرية في النحو العربى، للدكتور محمد حماسة عبد اللطيف، مكتبة دار العلوم، القاهرة، ١٩٧٩م.

(٢٨) العقد الفريد، لأبى عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي، شرحه، وضبطه، وصححه، وعنون موضوعاته أحمد أمين، وأحمد الزين، وإبراهيم الإبياري، ووضع فهارسه محمد فؤاد عبد الباقي ومحمد رشاد عبد المطلب، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر، القاهرة ٢٠٠٤م.

(٢٩) الغزو المغولى أحداث وأشعار، لمأمون فريز جرار، دار البشير، عمان، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

(٣٠) فوات الوفيات، لابن شاکر الکتبی، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، يناير ١٩٧٤م.

(٣١) فى التعلالى النصى والمتعلالىات النصیة، لمحمد الهادى المطوى، مقال بمجلة المجلة العربية للتربية والثقافة والعلوم، جامعة الدول العربية، السنة السادسة عشرة، العدد ٣٢، مارس ١٩٩٧م.

(٣٢) القافية تاج الإيقاع الشعرى، للدكتور أحمد كشك، القاهرة، ١٩٨٣م.

(٣٣) القاموس المحيط، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز ابادى الشيرازى،
نسخة مصورة عن الطبعة الثالثة للمطبعة الأميرية سنة ١٣٠١هـ، الهيئة
المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

(٣٤) القصيدة العباسية: قضايا واتجاهات، للدكتور عبد الله التطاوى، مكتبة
غريب، القاهرة ١٩٨٨م.

(٣٥) الكامل في اللغة والأدب، لأبي العباس محمد بن يزيد المعروف بابن بردت
٢٨٥هـ مؤسسة المعارف بيروت، دون تاريخ.

(٣٦) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل،
للإمام محمود بن عمر الزمخشري، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، الطبعة
الأولى، ١٣٥٤هـ.

(٣٧) كنز الدرر وجامع الغرر، لأبي بكر بن عبد الله بن أبيك الدواداري، الجزء
التاسع، تحقيق هانس روبرت رويمر، سلسلة مصادر تأريخ مصر
الإسلامية، نشر قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألماني للآثار
بالقاهرة.

(٣٨) لسان العرب، لابن منظور، تحقيق عبد الله على الكبير وزملائه، دار
المعارف، القاهرة، د.ت.

(٣٩) مآثر الإنافة في معالم الخلافة، لأحمد بن عبد الله القلقشندي، تحقيق عبد
الستار أحمد فراج، الكويت، ١٩٦٤م.

(٤٠) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، لشهاب الدين أبي العباس أحمد بن
يحيى بن فضل الله العمري ت ٧٤٩هـ، الجزء السادس عشر، بتحقيق
الدكتور محمد إبراهيم حور، منشورات المجمع الثقافي بأبي ظبي.

- (٤١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، طبعة دار الشعب، القاهرة، د.ت.
- (٤٢) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير، للإمام فخر الدين الرازي، دار الغد العربي، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
- (٤٣) المقتضب، صنعه أبى العباس محمد بن يزيد المبرّد، تحقيق الأستاذ الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- (٤٤) الممنوع من الصرف وغربة المسار، ضمن بحوث كتاب اللغة والكلام: أبحاث فى التداخل والتقريب، للدكتور أحمد كشك، نشر مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٩٥م.
- (٤٥) موسوعة موسيقى الشعر عبر العصور والفنون، للدكتور عبد العزيز نبوى، المجلد الأول، الطبعة الأولى، دار اقرأ للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.
- (٤٦) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، لجمال الدين أبى المحاسن يوسف بن تغرى بردى الأتابكى، الجزء الثامن، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٥٨هـ - ١٩٣٩م.
- (٤٧) نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر، لديفيد بُشبندر، ترجمة عبد المقصود عبد الكريم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الألف كتاب الثانى، العدد ٢٠٦، القاهرة ١٩٩٦م.
- (٤٨) نقد الشعر، لأبى الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق وتعليق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

٤٩) نهاية الأرب في فنون الأدب، لشهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري، الجزء الثاني والثلاثون، تحقيق محمد فهمي علوي شلتوت، ومراجعة الدكتور عبد العزيز الأهواني، والدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور، طبعة دار الكتب والوثائق القومية، الطبعة الثانية، القاهرة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.

٥٠) هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، لإسماعيل باشا البغدادي، وهو المجلد الخامس من كشف الظنون، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

٥١) الوافي بالوفيات، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، الجزء التاسع عشر، سلسلة النشرات الإسلامية، طبع على نفقة الجمعية الألمانية للبحث العلمي، دار صادر، بيروت.



المحتوى

الصفحة	الموضوع
٣	• الإهداء:
٥	• المقدمة:
٩	الفصل الأول: النص: ضبط، وشرح، وتعليق
٢٧	الفصل الثاني: المبدع والمتلقى وشبكة الظروف
٤٣	الفصل الثالث: القصيدة بين الانسجام واللحن
٥٥	الفصل الرابع: التناص والدلالة
٥٨	المبحث الأول: التناص مع القرآن الكريم
٨٢	المبحث الثاني: التناص مع التراث الشعري
٨٨	المبحث الثالث: بين جمال الدين التبريزي، ولقيط بن يعمر الإيادي
٩٣	• الخاتمة
٩٥	• مصادر البحث ومراجعته



كتب أخرى للمؤلف في أدب العصر المملوكي الأول

- ١ - الصفدي وشرحه على لامية العجم: دراسة تحليلية، الطبعة الخامسة، مكتبة الآداب بالقاهرة ٢٠٠٧م.
- وقد كتب على الورقة الأولى منه خطأ الطبعة الأولى لذا لزم التنويه هنا حيث لم نستطيع إصلاحها هناك.
- ٢ - شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبي المتوفي ٧٢٥هـ كاتباً رؤية أدبية ونقدية، مطبعة الشاعر بطنطا، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.
- ٣ - تقي الدين السروجي وما تبقى من شعره وموشحاته جمع وتحقيق ودراسة، نشر بمجلة كلية الآداب جامعة الزقازيق في عددها الحادي والأربعين الصادر في ربيع ٢٠٠٧م، وطبع في نشرة مستقلة بمكتبة الآداب ٢٠١١م.

